مجموعة قصصية

# صدى من داخل زنزانة

زكية خيرهم



# بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

**مكتبة جزيرة الورد**

اســم الكتاب : **صدى من داخل زنزانة**

المـــــــؤلف : زكية خير هم

رقــم الإيداع :

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٣٨٧٧٥٧٤

الطبعة الأولى

# غريب

كان يبحث في ذلك المكان المهجور عن «أمل» لتستأجر له وطنا. يتأمل بين الجدار الأربعة التي تسجن روحه القلقة وغير المستريحة. يحلم بوطن بين القصور والقلاع، ودموع الشوق تطارد آهاته. يتحدث مع وحدته مخاطبا أمله التي اختفت أو ربما هو الذي اختفى كنور يخرج من جسد مطروح على قارعة الطريق. ينظر إليها تبكي وتنوح جسد بدون روح ولا نبض. قهقهات ونشوة الانتصار الكاذب الذي وهبه لنفسه على تاريخ مشبوه يدوي في أرجاء المكان كما آمال أخرى ستنعي ذلك الوطن.

يخاطبها وليس من مجيب. قصائده متسولة ... كلماته ثملة ... مشاكسة ....تبحث عن هوية مفقودة في رعشة الزمن.

في ذلك الزمن القديم ... في ذلك الوجود يمضي وراء الستار ليفض بكارة الصفاء. في درب أعصابه ضاعت كلماته في سكون اليأس، كما ضاعت غيمة وتوارت في غروب الأمل. غريب مازال يسير في غربته العطشى، دون جرعة ماء تطفئ ظمأ سمائه التي لا تعرف الوسن. طار النوم من جفنه ليجد نفسه في بلاد الصحاري والرمال. يبكي أملا أن يستأجر له وطنا ويضمد جروح الفراق التي هشمته رياح جرفت الحقيقة، وتركت وراءها سنين من الكذب المشنوق بالألم. لا الحلم ولا الأمل ... ضاعت حكمتهما تحت براثن وطن، وصمت صوت الحق يحلّ محله الأشواك. ضاعت الأحلام كما اختفت خيوط هشة من بصيص النور. ضاع كل شيء ... تمزقت الخيوط وغابت الشمس. كما تبدلت الأمطار والقلم يسطر الأسى وشعارات وكلمات غامضة ومديح هجائي على شكل غزل.

أهو حلم عابر أو كذبة معتقة تعيش في الوطن؟ تمزقت على الشفاه شعارات كما خدشت العقول الأظافر. وأمل تجلس القرفصاء تبكي غريبا عن وطن مجنون يقود أمله إلى الوحل... تلاشى في البعيد عند انقضاء الليل. صراخ الغضب والأسى يغطي البحر مثل ألواح من سديم، وصمت حزين ينسكب من دموع ظمأى. ويأتي الوطن ... وبين السكون وبين الدموع وخلف العيون سيبقى الأمل، ويدون القلم على السطور حكاية نار شبت لتحرق الجبال والصخور والحب والسلام وأمل غريب وغربة أمل.

انتابت غريب رعشة على جسده الملتهب يكتوي بنار الذكريات. ساعات ... لحظات اختفت في كهف الضياع. ووحدة تتوسد غربة ودموع تبحث عن أيادي لا تقوى على اللقاء. عن روحين أنهكهما الوطن.

أمل وغريب وما بينهما الوطن ... انقضى الليل على شفاه الجميع، وأشرقت النار في وقت غسق، في بحار من دموع ومياه من أحلام. رحل كل شيء. اختفت الأشياء وأغمضت عيني على امتداد التلال، أتأملك دون حجاب وأنا أبصر ملامح ذلك الوجه الباهت.

يا له من قلق يلهث بين ضلوعي، وأنا مازلت أتأملك خلف تلك التلال وفوق تلك السماوات. افترقنا للأبد عن أوطاننا وجذورنا، فلم تعد لنا صور ولا آثار على تلك الرمال.

هل نستعيد ساعاتنا التي ولّت في دروب الضياع ووحشة الليل؟ ليس مهما أن ترجع الأشياء إلى ما كانت ... ولا أحد يدعي مأساتنا المستحيلة، ولكن أن نعرف الكون على ما هو عليه وكيف نتصرف فيه بعيدا عن تلك الوجوه التي تحط المرء في دوامة الجنون. كل شيء أصبح عبثا .... لم أعد أؤمن بشيء إلا باحتجاجي وتمردي، لانعدام المنطق في وطن يلفه الحطام ويقوده الضياع. قلعة عمياء محصنة بالجهل بعيدة عن العالم.

لن أرضى بساعات محكومة بالزوال ولا السلام المدثر بالبؤس، لن أتلقى أوامر لم تعدّ تطاق . إنني أؤثر أن أموت عزيزا رافع الرأس على أن أعيش حياة الذل والهوان. خذوا معكم ناركم التي تحرقني عبثا، وتمسكوا باحتجاجاتكم وإرهابكم وسياطكم وظلمكم ... أسفي عليكم وحسرة عاشق ...!! غريب ... بلا وطن!!

مازال يتفقد الأشياء ليستأجر وطنا بين الروابي المسكونة بالحلم والجنون. يتبعثر في احتراق ... يتبلل في الشرود ... يتجول في حروب على منفى السنين ... وتجاعيد الغربة تعزف كلمات الانتظار على نغم الرذاذ ومنفى السراب. ويبقى غريب سجين الديار، وألم المنفى يئن الوطن وتبقى الجراح في صمت تسيل.

ويوما بعد آخر وسنة بعد أخرى وبين الهضاب ورمال الصحاري العطشى، معا غرقا وراء أمواج مرتبكة لتقودهما بعيدا إلى اللامكان. كم هو موحش ومعتم ذلك العمق المبهم الذي يشبه غيمة سوداء في عتمة الليل. ضاعت الأحلام كما الابتسامة في ضباب الصباح. كما تاهت الخطوات بعيدا عن الوطن والأشجار والأزهار . اختفى الربيع بين الحقيقة والدخان.

وظلت كذبة الوطن تنعي الماضي كما الحاضر وتتأسف عن الآتي الذي ارتحل. مزقت الريح ثوب الشمس، وجفت الصرخة في دموع اليأس، وابتعد غريب عن أمل، كما اختفت أمل عن وطن حاضر يعيش فيها وملتصق بغريب كما الجلد على اللحم.

وكلانا يرقد تحت وهم قبة الوطن.

# سقوط القناع

كنت أراها تسبح في فضاء البهجة تهمس لزرقة السماء، مشغولة في انبهار لصفاءها. تنظر لخيوط الشمس المترامية على البحار كيف تحضن بر فق السهول الممتدة وأشجار الصنوبر والورود .كل شيء كان يشع حياة وشروقا. الفراشات ترقص على الفرح بين الزهور والمروج، والطيور تغني إشراقة الشمس والحياة. الحياة بأسرها كانت متناغمة، حتى النسيم والرياح والهواء تغني على إيقاع المطر الذي يشدو في شرفة تحت السحاب .أتأملها من ذلك المدى البعيد، أراها بهجة تزهو بحلمي المنتظر وقلبي خلفها إلى أن اختفت في اختناق الضباب.

ركضت في وحدتي أجري والهث في فزع بين جذبات الحنين، وفي طريق ارتحالي على وجع السنين المعتقة بالهموم، مضيت وحيدة على صراط الصمت القاتل وحيرة تأسر استنطاقي وفي لساني كلمات تعجز عن الحراك .

انفجر الصمت فجأة ودوى سكون رهيب، أسر روحي فغابت كلماتي وفاض السكوت. تغير كل شيء حتى زرقة السماء انقلبت بلون الرماد. الشمس تراجعت والنسيم والهواء والرياح توقفت عن الغناء. اختفت أضواء النجوم وأنا في صمتي مازلت أسير، رغم ضياع خطواتي في سكون تلك الشوارع وهدوء الأرصفة حتى زجاج النوافذ توحي باللامبالاة .

غاب كل شيء، وتوقف الزمن ، كما اندثر فراغ علي ألقي المستحيل. أتعكز مستأنسة في فراغ أحلام مقطوعة، جريحة أبكي الجفا على زمني الأعشى. كيف استطاعت أن تمزق أسمال فرحتي. وبعدها تدير بثرثرتها المعتادة إلى جدول آخر، لتحط فيه ألمها واعتصارها على السنين التي ولت وتركتها مع الكوابيس والوحوش الضارية في ليلها ونهارها. حياتها العطشى إلى الشمس تجري، ولهائها فحيح يحرق كل شيء. عجيب أمري،

كانت كما المخدر تحملني عاليا في السماء مع أوهام، أطير في السماء أبني وأشيد لوحدي، حيث الإخلاص والأمل يكبران. وحيث بريق النجوم. أ هو عمى البصيرة...؟ هوت بخنجر ها المسموم على ظهري، وهوت دموع كدم القلب على خدي وخارت ركبتاي على الأرض وابتسامة حسرة على صدق مغلف بكذبة ولم تترك لي إلا ظلاما وخوفا ووحدة .

كيف استطاعت أن تقتحم حياتي وتستمع لهدير موجي، وتسحب من تحتي جدوة فرحي. كيف تمطرني بعطر الكلمات ومن ورائي تحرق كل الأشياء وتترك رمادا على كفي .وحتى الآن مازالت تأتي ولا أعرف من أي باب تدخل، ثم تلقي ابتسامة ببراعة ساحر وتدكّ بعدها طيف مرحي، وتغادر على وجومي وحيرتي. وتأتي ثم تأتي بلا كلل تطير في جنونها الأحمق كالبرق، وقبل أن أرمش بعيني أجدها من يميني وشمالي تحيطني من كل الجهات .تمطرني بالكلمات وتكرار زيف المفردات، حفظتها غصبا من تكرار الإنصات، احتسيتها رغم مذاق القذف والغدر، وأنا أهدي في سباتي دافنة رأسي بين يدي. كفى مستنقع الأحرف التي تخدش الروح وتفتك بالوجود .

بعدها شعرت بالإغماء، أتساقط كما الندى على نهاية العالم وفي سقوطي أتعود من الشيطان ومن حاسد الشمس والنمل، أتعود من ظلم وبهتان وشقاء الإنسان، ومازال لساني يتلو دعائي إلى أن اشتدت عاصفة الصمت من أعالي تلك الجبال. كسر البرق شموخ النخيل وأجساد الأشياء تهاوت من حولي وروحي في رعشة تستمع لأنين صمتي ووحدة كتماني .

تراكمت بداخلي كلماتي، تأوهت ونزفت كما قلمي، ورغم ذلك مازلت أبحث في كل مكان. في صحوي وفي منامي وخيالي. مازلت بلا كلل أتأمل تلك السماء وعلى امتداد زرقتها ارتقب تلك السعادة التي ولّت.

ستأتي رغم اهتزاز الأرض وارتعاش نسيم الليل. نعم، ستأتي من بين جنبات كل تلك الكلمات القاتلة والمصطفة بتهذيب وعبث في صياغ الحكايات. أراها قادمة رغم المسافات التي تقزمت ورغم ألم الذكريات ورغم بهتان سم دسم في عسل. ورغم قرع الطبول على إيقاع القيل والقال ستأتي السعادة ممتطية على صهوة ذلك الصدى الآتي من السماء .

# وردة غير كل الورود

التقت عيناها بعينيه وهو في الطرف الآخر من الشارع، فحوّلت بصرها بسرعة وواصلت حديثها مع صديقتها التي كانت تناقشها موضوعا ساخنا جعلت يداها تتطاير مع الهواء وكلماتها على عجل تتلاحق ببعضها بقسوة تارة وانتقاد وتأفف تارة أخرى. على حلم على أمل تعيشه ككل مغترب. مازال القلق مرتبكا بين غيوم ومجهول، وبينما تقطعان الشارع تلتقي عيناها بعينيه مرة أخرى، ومن غير شعور تبتسم له وتحييه بحركة برأسها، ويرد هو السلام بالتلويح بيده ووجهه يخفي ابتسامته التي حاولت جاهدة أن تظهر على محياه دون جدوى. أما صديقتها فتستمر في صخب ثرثرتها عن الوجود بقساوته ونشوته وحنينه، برغباته وأحلامه باضطراباته وتناقضاته. أحيانا تتعثر بين كلماتها وأحيانا تتيه في هلوسة المجهول. لم تعد تصغي إلى حوار صديقتها، فالصخب الذي بداخلها حملها من غير أن تدري إلى ذلك الزمان والمكان تبحث فيه عن أشلاء ذلك الفراق اللاهث وعن سنوات أثملتها ثقوب من الصمت وانحراف الكلمات الملطخة بالتلفيق و شذوذ القيل وبهتان القال.عن تفرقة وحروب باردة وأحقاد تتسكع في الشوارع كزوبعة صاخبة تغالب عتمتها الهروب من الوحدة وأشباح الليل وحين تتعب تدخل البيوت وترمي البهتان عن الغائبين، لترجع مرة أخرى إلى تلك الشوارع بحثا عن مكان آخر لتحط فيه سمها من الرياء على الأحباء. تنوح أحيانا كطفل وأحيانا أخرى تعوي كوحش. شخصية غريبة، يلونها سواد الهواجس واحمرار الرغبات وارتباك الانكسارات المتعددة بعدد كذبها وتكبرها وقذفها للناس في كل خطوة تمشيها عابرة، فتزداد المسافات بينها وبين من نهشت لحمهم من غير أن تدري فترتمي بعدها لحزن سببته لنفسها وترشف حسرتها خلسة عن أعين الأنظار .ثم تستمر في تقربها بالوهن لتصبح قابلة للكسر وتتحول الملامح إلى أخرى غريبة مخيفة غدارة ..

وصلت عبير وصديقتها نور أمام باب « البازار» . ودّعت صديقتها نور وواصلت طريقها تمشي بين شوارع المدينة مع قلبها المحطم الذي ينبض ألما وخطواتها تلاحقها في وهن وسط زحمة المدينة ترشف حزن صمتها وتقذف بها اضطراما على جرح مفتعل يئن ألما وهي تحمله عبر تلك السنين بين علامات التعجب. تهادن استفهامها لحلم جميل ينتهي مهزلة على متن قطار وذنب كسم يعادي كل المسألة وطوال تلك الرحلة تبحث في جرحها عن مفردات تلملم ما بعثرته حماقاتها التي لا تتوقف. شتان ما بين الكلام وبين أقوال تسدلها وقاحة مفتعلة وتدوس على أجمل الأحلام ..

تحمل جرحها وتبتعد عنها لتجلس في مقعد آخر في ذلك القطار وكل الذي انتابها بعض الكآبة وهي تنظر إليها بالتحديد في اندهاش غير مصدقة. أمعقول أنت وردة؟ أمعقول ما أرى؟ أصحيح ما أسمع؟ هل أنا في حلم أو كابوس في النهار؟ أما وردة فكانت تترنح على ابتسامة في جلستها عن صورة لها في خيالها فقط، اعتقدت أنها عكستها ولو على حساب غيرها، لمجد في أناقة ولباقة لرقيّ روح دثرها الارتباك وعدم الثقة، لنفس معذبة إلى أن أصابتها لعنة المسخ.

ما زال الشارع ينبض بالحركة والأرصفة تتزاحمها الخطى من كل الجهات تحت نمنمات الشمس الدافئة، أما عبير فكانت ترتعش في صقيع تلك الأحداث التي استرجعتها ذاكرتها حين ابتسمت له على متن القدر الذي جمعهما وسط الشارع صدفة، مما أحيا ذلك الماضي الذي يبعث في النفس حسّ الألم من الماضي والحاضر الذي حاولت أن تمحيه من الذاكرة وتشفي القلب من ناره .

على امتداد الزمن ما زالت خطواتها تقودها على غير هدى إلى أن أبصرت محطة القافلة. هناك جلست على المقعد ميممة وجهها إلى الشمس كي تستمد منها شيئا من الدفء لتنعش روحها التي أوشكت أن تتجمد صقيعا. ضجيج المارة يقبع فجأة في صمت مع صمتها في وضح ذلك الصباح المشرق وعيناها التائهتان تنسحب بهدوء من تفاصيل المكان كافرة بكل ألوان الورود. يأتيها صوت يهمس في أذنها: « راسلتك لكنك لم تستحسني كلامي». تلتفت في اندهاش لصوت ليس بغريب عنها، تقف على عجل كمن يريد الهروب بآلامه، تتلقفها ذراعه التي ضمتها في صمت ..

# اعتذار

حلقت في تلك الآفاق البعيدة عن عاصفة الصمت وغيوم الإبهام، ومازالت تعلو بعيدا في ذلك المدى، هاربة بغربتها التي يمزقها صقيع الكلمات المتلعثمة بكل ثقة. كلمات أبت أن تنبس بلب الأشياء وتعترف بحقيقة الأحداث ، مكتفية باصطفاف متناسق، مشكلة مجموعات من الأمثال والعبرات، متغاضية عن جمالية الأشياء وواقعها باستعمال كل أنواع الألوان «الباردة» في تهذيب وانسياب. فتراها أحيانا بلون الحر المحرق والصقيع الدافئ وأحيانا أخرى بلون البركان الهادئ والرعد الصامت. لم تكن تريد إلا سلام الروح وشفافية الأشياء. اختنق الصمت بين زركشة الكلمات المترثرة في تأنق عن قيم الإنسان وصلب الإيمان . عن قسوة الزمان، عن رحمة ورأفة وغفران، عن أمراض وأحقاد سببتها علل العقد، عن بهتان صادق وصدق كاذب، عن خوف وضياع في رحم الأزمان .

كلما تعلو بعيدا محاولة أن تسبح بروحها في ذلك الفضاء بعيدة عن كل أنواع الحر، تتمايل بها نسمات الشرود في سكون الصمت. تنظر من ذلك البعد المحلق أحيانا تختفي بين الغيوم وأحيانا تتيه بين تلك المجرات. فجأة يدوي صوت كالرعد فتفقد توازنها فلم تلبث إلا أن تجد نفسها تجلس على قارعة الطريق. التفتت يمنة ويسرة . سكون مخيف وصمت مميت وأشواك مترامية هنا وهناك .... اختلطت عليها الفصول فأصيبت بزكام التيه فاختنق البكاء في ارتعاش وخوف من منظر تلك الأشياء . يظهر ضوء على مرأى تلك الرياح، ورغم العواصف وغبار الرمال من كل الجهات التي تحجب الرؤية، ينبعث صوت هادئ من اللامكان ويتجه في شوق مفتعل للاقتراب من الغموض وفك طلاسم الألغاز. تستقبله بهدوء متجاوزة جبن كلماته رغم وقوف روحها بعيدا في فرح مفتعل وبكاء مبتهج. لا شيء أجمل من ساعات الصفاء. لم تكن تر إلا نظرات تتوسد الشرود، وأحيانا تخترق المكان. اصطكت رعشة على تلك الأريكة المسكونة بالخوف والقلب يتململ في حزن على تلك المساحات التي تفترش السراب. تعبر الماضي والماضي يعبرها وحاضرها يشهق بتلك الحكاية. حكاية روح قلقة منذ الأزل، ومازالت تنزف أشباحا في كل خطوة مجرجرة كآبتها الآثمة .

يقترب الضوء رويدا رويدا إليها. تتوقف عن توترها. يلثم يدها ويبتسم .وبين المسافات والأحلام المهتزة في ساعات حبلى من العقد المزيفة بالكذب، المنمقة بالافتعال وغطرسة تلك «الشاهقة» إلا من الكلمات المسنة بشيخوخة الكوابيس في الليل وفي النهار ولا ترتاح إلا بعد فحيح الحروف التي تنقلها عبر الأثير لتلسع بها كل شيء ما عدا واحد واثنين وثلاثة والباقي تبيعه في سوق النخاسة بأصفار من القذف التي تدور في حلقاتها اليومية الفارغة .

فراغ يركض حافيا بين الأشواك والحفر، ممارسا هواية الغيبة «الإيتيكيتية» يترنح باستنكار ويخطو بتشدق على سجاد من حرير وفي يده ساطور خاص لتحطيم كل أنواع الجدار حتى وإن كان من حديد. نجح الفراغ رغم فراغه ورغم ذلك لم يشفى من عقده. بل مازال يتمادى يحرّف ويحرق ويجرف معه كل شيء جميل ... لم يبق شيئ ... كل شيء راح واندثر . فلم يبق إلا الصمت الذي يرتقب الاعتراف.

جلست مقرفصة تحيطها صدى الكلمات الملونة بإيقاعات ورنات، ترقص في ظلام منغلق بالسواد. وفيما هي تتمايل مع إيقاع الهروب من الحروف تمتد تلك اليد من ذلك الضوء فلم يكن بوسعها إلا الاعتراف .

أنا الجرح الآثم يعتذر لتلك السكينة التي غرزت جلدي فبللها دمي... أنا تلك الدمعة الآثمة تعتذر لتلك الحجرة اللقيطة التي انهالت على جبهتي ... أنا ذلك العشاء الذي مازال يطحن في بطن ذلك القرش الذي لاكني بدون أسنان. أعتذر عن الأرض التي زلزلت وعن أثقالها التي سالت وعن وديانها التي طفحت ومازالت ....وخطواتي في غفلة لا علم لها ولا خبر .

# قلق الرحيل

وسط ذلك الحشد الغفير من المارة، كانت تجلس على شفير الحزن وقلق الرحيل مرتبك على محياها يمزق ما تبقى منها. تتطلع إلى الأرض حيث حمامة تلتقط فضلات المارة على ذلك الرصيف. لم تزل عيناها عن تلك الحمامة إلى أن طارت فجأة، فطار عقلي معها بذكريات ذلك الماضي الذي كنا فيه حمامين نطير بهدوء عكس السراب. في تلك السماء الصافية زرقة، كنا نطفئ شوقنا المحرق وسط ذلك الضباب الندي، نتقاسم الأفراح ونتبادل أحزان غربتنا التي تبعثرت تحت أقدام الوطن. سالت دموع حزني المحطم على أيام ركضنا فيها نحو المستحيل، وبسطنا فيها خيمة جنوننا وأحلامنا. فجأة يأتي عقاب ضخم نحونا ونحن في غفلة نلون قوس قزح بشفتينا ونسبح على صدر ذلك الفضاء ونرتمي على ذراعي الشمس، نجتذب أطراف دفئها الذي عرى شبق روحينا التواقة فقط الى اجتذاب الندى في ذلك الأفق اللاهث. سنين كانت غير كل السنين. سنوات متكدمة على سر أحداثها، تطاردها خطوات العقاب الذي مازال يحوم متربصا في ذلك الفضاء وعيناه كالسهم، تخترق روحينا التي لم تكن إلا هائمة لاستنشاق هذيان الريحان .

يقترب العقاب ونحن في ذلك الحالق، ويحول بيني وبين سعادتي، وأنا أركض وحدي مبتعدا أجهش لفتنة ذلك الكائن المضطرب الذي يستجمع شرود كل العالم، وبيدي أمسك سعادتي معي، أتعثر معها في ذلك الحالق، كمن يتعلم التحليق ونحن تحت رحمة ذلك العقاب .

دمعت عيني على حبي المنكسر، فحجبت الدموع الرؤيا عن أنفاسي المتجمدة . ورغم ذلك مازلت أراها ممتثلة على ذلك المقعد، تنظر الى نفس المكان الذي كانت فيه تلك الحمامة تقتات اكلها. هل اذهب اليها واجتذب ذلك الماضي الذي احترق؟ وكيف لي بعد أن نهش العقاب روحينا، فلم يبق إلا فراغ محفور في الليل والضلوع .

ذهب ذلك الجنون اللذيذ، كما فرت كل الأزمنة، و حزن الأنين علي الألم وبكي الألم على الجراح وتألمت الجراح من مخالب ذلك العقاب الذي أسكت رو حين كانتا ترقصان على عزف تراتيل تشذو بجنون أرق الكلمات. فأصبح الصمت بيننا يمزق السكوت والسكون يبكي تنهدات الصخب الصم .ذ هب بحلمنا وخطف سعادتنا...

مرّت أعوام وكانت كلما خطرت علي بالي اكتظ حزني وسالت دموعي حارقة كل الأمنيات، وكلما ذكرتها شعرت بأنفاسها التي لا زالت تسكنني ليلة باتت عندى .طيفها يعبر في أوردتي كل ثانية، أراها كلما حاولت رؤية نفسي بين حروف كلماتي .كنّا قد ثملنا في مطعم وعدنا إلي البيت نصغي لرذاذ صوتنا، نتأمل هطول المطر على أجنحة النافدة، ونتنشي احتراق المكان المجنون على خلسة. وتحادثنا ووجدنا أنفسنا نحلم على مرآى سكون ذلك الليل الهادئ في اشتياق وابتهاج يلهث باحتفاء واشتهاء. لا شيء أجمل من صفاء تلك اللحظات. صحوت ليلا وأنفاسها تدفئ وجهي، تسري في كل خلاياي تدخل أعماق قلبي. كانت نائمة في عالم احلامها، وكنت أتمني لو منحني الله معجزة الهبوط إلي عالم أحلامها لألتقي بها هناك كأننا في يقظة. نظرت إليها في ذلك الليل البهيم فرأيت نفسي تتحسس دقات قلبها. كانت تلك آخر ليلة ذكرتها بعد ابتعاد السنين...

اختفت كما درة من ضوء مغموس في وجه الشمس، كما حبة من رمل وسط كثبان رملية. وهاهي الآن مازالت تبحث حتى من بين بقايا تلك الفضلات علي الأرض في محطة القطار. لم يبق شيئا بين تلك الفضلات بعد قيل وبهتان مزعوم ملغوم بحروف من نار، تحرق الحرّ بمتاهاتها على طول المسافات .

تحوم بين علامات الاستفهام حينا والتعجب حينا آخر، تتوكأ على ركود الزمن الذي توقف على كذب «اتيكتي» مذمق بفحيح من سم، من لغم من عضة كلب مسعور تأبى الشفاء .

حسد مكتظ بغيرة ارتشف خلسة سعادتنا. وتفجرت الشوارع بذباح كلماته الخاوية، المريضة من جوع في نفسه يأبى سعادة الآخرين. ذباح يختلط أحيانا بالعويل واحيانا يتحول الى أنين أذيق، وأحيانا أخرى إلى دموع تمساح أو نقيق ضفدع عجوز يدعي الحروب ويقدّس الحب .لكن كيف لمن يفتقد الحبّ في حياته أن يسعد لحب الآخرين. عقاب يترجرج على عكاز أجنحته، تهتز مفاصله أينما حطّ بلونه المزركش بالزيف، ينزع الى الخبث وثرثرة الغيرة الحسودة التي أفسدت رباط روحينا وعرقلت طيف ذلك الحب بدسيسة أوقفت مسيرة عشق تلطخ بوحل مخالب ذلك العقاب. هكذا جبل البشر في علاقاتهم على مدى التاريخ .

كنت اعرف انّ هناك من يشك في صمتي الذي ابى أن يتورط من جديد لظرف معين يتعلق بها. كان عليّ أن اتكتم هذا الحبّ الكبير. وأخشى أن يشعر ذلك العقاب. لم أكن أفهم سبب غيرته التي جعلته يبعدني عن زهرتي بهمسات الكلام وإشارات العين وسموم الكلمات. فمرة نقلوا لي أنها أساءت أليّ. ومرّةً أخرى سمعت أنها تسخرُ منّي. لا اعرف مدى صواب ما نقلوا اليّ. لكني مع ذلك كنت دائما انظر إليها ، لا بالقلب، واسمع كلماتها، لا بالعين. بل كنت أفكر بقلبي نحوها وانظر بالبصيرة إليها. فأنا أعرف مدى نبلها وأخلاقها الراقية .

# ذات بدون هوية

كانت تتخيل نفسها فوق قمة جبل، حيث الأشجار الكثيفة شديدة الاخضرار مصطفة بغير انتظام في وسط قمة ذلك الجبل، حيث توجد بركة مائية يعكس ماءها زرقة السماء. وقفت تتأمل ماء تلك البركة لحظات ثم رفعت رأسها إلى السماء. أغمضت عينا ها متأملة الفضاء الواسع . لملمت ابتسامة انتصار كانت الأولى ذلك الصباح. هل كانت تصلي و تبتهل لخالق ذلك الجمال الباهر أم كانت في لحظة هروب يطاردها كما الهروب من منفى إلى منفى بحقيبة فارغة من الهوية ، وتبقى الروح في ألم تبحث عن الذات وعن الأحلام التي تبخرت.

خطت خطوات سريعة نحو البركة، دسّت يداها في الماء مرات واصلة إلى وحل غريق في قاع البركة. مدت بصرها إلى تلك المساحات الشاسعة المغطاة بالاخضرار. سهول و مروج ووديان وشلالات تصب من عيون الجبال الشاهقة ومياه من كل الجهات. نظرت إلى أسفل الجبل فرأت السواح في ذلك العمق يبدون كالأقزام، ومنظر السيارات والشاحنات تبدو كلعب الأطفال. قهقهت عاليا .. أضحكها منظر الأشياء وهي صغيرة الحجم كانت تحس و هي في قمة ذلك الجبل كأنها عملاق ضخم، وكأن قوة العالم كله في قبضة يدها. رفعت يداها ورأسها إلى السماء ثم استنشقت ذلك الهواء النقي. شعرت بنشاط عارم وقوة تعتقد أنها لن تزول.

فجأة تغير لون السماء في لحظات وأصبحت تلك السماء الصافية الزرقة، مغطاة بقطع كثيفة من الضباب. اختفت الشمس الدافئة وحل محلها برد قارس، كما اختفت هي وسط ذلك الضباب ... أصابها الذعر ، وحيدة وسط عتمة رمادية اللون وصوت السكون يعم المكان. اختفت أصوات زقزقة الطيور و دفء المكان .اختفت موسيقى الربيع التي كانت تعم المكان ذلك الصباح ، وأقبل صقيع تلك الجبال وأحاطتها الرياح من كل الجهات.

لم تعد تقوى على الحراك وسط تلك العتمة المرتبكة التي شوشت تفكيرها وبعثرته. تحاول مغادرة المكان. تقلصت عضلاتها واصفر وجهها. الرجوع إلى حيث كانت أصبح حلما. انقبضت أنفاسها غير قادرة على التنفس الطبيعي. أصيبت بحمى ذلك الضباب الذي أخفى حتى تلك الأشجار الشاهقة الضخمة، فلم تعد تر شيئاً حتى هي اختفت خلف تلك العتمة الباردة. يا الهي !الى أين اتيت ولماذا؟ يا ليتني...

اختنق صوتها وحل محله صوت الصدى يدوي مخترقا طبلة أذنيها «لا نفع لممارسة لعبة البقاء. ذهب كل شيء واندثر. ذهبت تلك الأشعة الدافئة التي كانت تحضن المروج والسهول. ذهب ضوء النهار وغناء الطيور. ذهبت الفراشات بألوانها، كل شيء اختفى ... حتى المكان الذي أنت فيه أصبح شاحبا يابسا، رغم اخضراره المفتعل. لم يبق إلا خريف الأوراق الميتة آيلة للسقوط. لم يبق إلا الألم المترامي على أقدام تلك السحب. احترق الفجر وانتشر الليل. حتى السماء ثملت من اهتزاز الكائنات و الكلمات ...حروفها متسولة ...كلماتها مبعثرة خاوية من العطش ...وجوعها سم يفتك بالبهتان ... كلمات انفجرت زيفا وقذفت لعنة تأبى الزوال. هل يستطيع بعدها المطر أن يغسل ذلك الوحل المعتم؟ حتى قصائدك المتوسلة لم تعد تنفع. أصبح طقسك فراغا وشمسك ظلاما، ونسيمك عاصفة. شوكة سامة تلسع الأشياء. حية تنفث البهتان خلسة عن أعين الأنظار، فراغك الأنيق انفضح في فصل ذلك الربيع. أصبح كلامك رذاذا وهميا وبوحك كما صمتك معادلة من غير منطق. حتى القمر الذي كان يضيء سماءك اختفى من نبضك الذي لا يبعث الحياة. اختفى بعدما كان يسمع بوحك وسرك وشكواك، كان يحزن ويبكي على ألمك وكم كان يفرح لأفراحك. سقط القناع بعد أن جسّ حنجرة صمتك وعنّة تجهمك. كفى تلطيخ زجاج روحي بدبرازك المتعفن !كفى لدغا لؤما وخبثا مريرا ! دسائسك أصبحت مكشوفة بكل أدوارها المسرحية البائسة . لم يعد أحد يدع خده الأيسر ليمناك العاتية التي لا تعرف الرحمة والحنان.

ارتعدت مفاصلها، وضعت كفيها على أذنيها لتمنع ذلك الصوت الذي كسر حواجز كل المعاني. لابد من الهروب... إلى أين؟ فقد فات الأوان. لا الهروب ينفع ولا تصحيح ما أفسده ذلك الخبث المتأصل في النفس. جفت البحار كما احترقت الصحاري. كفى !كفى! لم أعد أحتمل ...! تعكزت على روحها المهزومة وأطلقت قدميها العاريتين صوب الخلاص. تنزل بحذر من ذلك العلو وخوفها يتصبب عرقا، يسيل جزعا ، ويتعثر فجأة على متن صخرة. تمسك بيديها بكل قوة، و يتهاوى جسدها من فوق ذلك الجبل ويسقط رويدا رويدا، تحاول أن تتعلق بأي شيء، تعبت يدها اليسرى، أما اليمنى فكانت مشلولة من علة قديمة تأبى الشفاء .

تكور جسدها على ألم محتضر وتساقط متدحرجا بين الأحجار الى أن وصل الى قاع الجبل. لم أصدق أن ذلك الجسد سيقف مرة ثانية وكأن شيئا لم يحدث. فتزرع فيه من جديد تلك الروح الشريرة. وأصبح

الجسد يمشي منتعلا الرصيف وفي طريقه يخطو بتثاقل واضح، وصمته صارخ في تخوم تلك الطريق. كلما رأت شخصا تتطلع إليه بانبهار او إعجاب أو تقزز واحتقار، تثني وتصلب وتهجو وتمدح، ثم تقذف وتغازل . و من فراغ تشرده يسبح في فراغ كسله المتهم بالمسؤوليات والحب للأهل والأحباب . فالأشخاص بالنسبة لتلك الروح عبارة عن مظاهر خارجية للتسلية أو المصلحة أو لا معنى فالمعنى يحتاج لروح آمنة مستقرة....... ويا ليتها اكتفت بذلك فقط.

# صحراء جافة

في تلك الصحراء الجافة حيث الرمال تفر عبر تلك المساحات من تهافت الرياح، هاربة من موسم ذلك الجفاف الصامت الذي أجهض النسيم وأشعل التلال نارا تزيد من طنينه أزيز حرارة الشمس، لتغتال العطش، وتترك القافلة هناك تجوب في تلك الظهيرة الثملة بهذيان الاحتضار. سكرات الموت يحوم بين تلك الصخور الصحراوية الناتئة والمتراصة في جنون وعبوس. ويقبل السراب متغطرس بتراخ إثر لعاب تلك القافلة المبتل بالوهم. كيف الخلاص من تحت أنقاض تلك الرمال؟ رمال مجنونة بصراخ شهوة الرياح، تشطب الصوت والكلمات وترسم بدلها أكاذيب تتكوم على شكل أمواج عالية مشلولة في زنزانة ذلك الجفاف. كيف الفرار من ذلك اللهيب وحرقة السماء المتدلية فوق تلك القافلة التي تتأرجح بين الموت والعذاب والرجفة من الوحدة.

كنت أتأمل المكان ووجعي اللاهث من ذلك المشهد، أفرك عيني لتستيقظ من كابوس هذيان عن صحراء وجهها بشكل الأفاعي، مصفرة من إثر الشمس وأشواكها خليط بلون الرماد والسواد. تتنهد في صخب مرتبك من المجهول وتضم بذراعيها ضياعا وظلاما ووحشة .جفاف ينتظر قطرة من ماء المطر القادم من سراب أو من أفق أشلاء تلك السماء اللاهثة من وجع العطش. جرح على الروح مقيم في صخرة البكاء. في تلك اللحظة الحاسمة فرت كل الأزمنة والمساءات خلف ظلال منكسرة باللهيب، وابتعد الغيم في ذلك الفضاء، فاختلط الأنين بالصراخ ثم اختنق بحبيبات الرمال التي تنبعث مع الهواء والرياح وصخب الحر .دوى صوت السكون ليوقظ كل أنواع الصراخ المحرق واشتباكات العواصف ونحيب الرياح وأزيز ينعي قطرات الندى .

صمت ساكن لحد الصمم فجأة يرتجف في لحظة خائفة، ويهيل الرعب هلعا على اختناق. بعدها ينذثر كل شيء ويختفي مع الفراغ في لحظات بكماء. إنه فصل القحط الذي أقبل من جديد يحمل بين جنباته عطش الموت وعذابات اللهاث تحت سقف سماء سوداء.

أهو فضاء النكران اللامتناهي يقلب أرشيف الوحل على راحة الزمن، أو ظلام المكان يشد الرحال على سرج أحزان وأهوال؟ أمواج تبكي على حضن الشاطئ، ترتجف في صمت كآبتها .جذية بمخالب الذئب، تنهش القلب وتزحف في تلك الرمال إلى ذلك الكهف وتنعي بدموع تمساح ذلك الماضي الذي كان في البرج المقدس عاليا ومكلل بلؤلؤ من البلاستيك .

ما أحلك ذلك اليوم، حيث أصبح كل شيء يسبح في وحدتها، حتى السماء كانت وحيدة بلا غيوم. كيف استطاعت تلك العاصفة الهادئة منذ عقود أن تسجن وتصلب وتسبي، وتنفي وترمي وتحرق؟ ظاهرة غريبة في تاريخ تقلب الطبيعة المخيف. طبيعة منذ سنوات كانت تهيء لهذا الاحتقان لتتفجر فجأة من دون قيد ولا شرط. منذ سنوات أحدثت جرحا نازفا يأبى الشفاء، يأبى الموت، سيظل ينبعث مع الروح لن يسامح ولو عبر الاماكن والأزمان. إلا أن الريح أخيرا تساقطت محترقة في لهيب أنفاسها، تتعثر في اكتئاب وتتساقط على أهداب الليل ...

عاصفة رملية تتعثر في سرعتها المذهلة محدثة طوفانا من الرمال الذي دفن كل شيء. فلم يبق إلا ضياع يكتم صراخه كعصفور جريح تهزأ به الريح. حتى ذلك الفراغ تمزق بالشرود. تلاشى حزنا وألما على غريزة بدائية موجعة يأبى ذكرها الزوال . مازالت كثافة رمالها المتهورة الفقيرة تهز كيان المكان. زمهريها يصم مخيلتي القديمة، تحرك أشيائي، تخترق جسدي كالرصاص، كجني يلبس روحا ويمزقها .

لكن كل الأشياء التي اختفت تحت أنقاض رمالها انبعثت من جديد .الواحات وأشجار النخيل والوديان، ونبات الصنوبر. وأقبل الحمام الزاجل وطيور النورس، والعصافير تغني مهللة بانقراض تلك الثعابين والثعالب. اختفت الببغوات والبومات، سقطت على شظية نعيقها ونقيقها الحاد الذي يؤدي إلى حد الصمم. فأصبحت رمادا بعدما احترقت بنارها. فلم يعد يسمع لتلك العاصفة إلا عويل خفيف مخلوط بألم أبله في طريق الجنون .

لقد ظهرت الشمس وزرقة السماء وصفاء الأشياء، وز هق ذلك الزمهرير .و هاهي الطيور فوق القمم تحلق في سلام وو ئام كما الأطفال خرجوا ليمرحوا ويرشقون الكرة في كل الجهات من غير أن تختفي تحت تلك الرمال .

لم يعد لتلك الصحراء العاصفة إلا أحلام تسبح في الليل مع رغبات العقل وجنونه. تزحف على الجسد الذي يتقلب في هدوء مفتعل وقلق مرتبك، وآت مجهول بغيوم صفراء بلون ذلك القحط. صحراء تومئ بهدوء طبيعة يابسة. تحتاج لماء في جميع خلايا رمالها وذرات طقسها لكي تعكس جمال واحاتها ووديانها وأشجار نخيلها.

لكن كيف ذلك ونار الشمس في جوفها؟

# منتهى الرقة

من أنا .... ؟ سألت نفسي هذا السؤال قبل أن أولد ولا زالت لا أعرف الجواب. ليتهم يقولون لي حقيقة الجواب، و كيف لهم ذلك وأنا لا أفهم نفسي ولا جوابا على سؤالي الوجودي هذا !!!. أعرف شيئا واحدا فقط هو أن متعتي الحقيقية في هذه الدنيا أن أحتفظ بكل أصدقائي .إلا أنني أصبحت متخصصة بامتياز في نثر سمي عليهم وأقتل صداقتهم لبعضهم. لا يرتاح لي بال حتى أطير محملة أجنحتي بالقيل والقال وأزركشه ببهتان ثم أضعه في دسم، وأسقيه لكل واحد منهم حتى ينفروا من بعض ، وهنا تتحقق قمة سعادتي ووجودي لأني متأكدة أنني شخص منتج ، حتى لو كان هذا الإنتاج هو الكراهية والتنفير والبعاد !!! أليس هذا أفضل من لا شيء ؟

كانت تقهقه شقاء و هي تتساقط كما ورقة الخريف، جسد منهك يتعثر ظله المنكسر ويحترق ألوانه، عينان جائرتان من كثرة التحديق إلى جمال الروح المسلوب، تجاعيد التفت حول العنق في غياب عطار وعد وأخلف. روح أنهكتها الحروب وكثرة اللف اللاهث في الشوارع. أناقة تدثر عفونة في الروح الشبقة لشهوة مجنونة تستيقظ لاهثة في منتصف الليل، قزم محشور بين العمالقة، ينقصه فقط بعض من اللغة لكي يصعد إلى الفضاء .تحاول أن تتمسك بأطراف السماء القلقة، تتضاءل يئسا. ومازالت تخطو على رصيف الجنون والتدمر. قدميها تطاردان خطواتها، تفكّر فيما مضى، تهيم على أيامها سنين من منفى دثرت بعضها المنهوك . الجميل أنني احتفظ بهم كلهم ... أعاملهم بكل مودة وكرم. أسقيهم الشاي وأطبخ لهم الطاجين،«أطيب مهاراتي وابداعي». أعشق أصدقائي وأقدس الحب. وهم صراحة كلهم طيبين معي كرماء صادقين بطبعهم و في تعاملهم. هذا طيب لحد البله، والثاني طيب صارم في صدقه لي، والثالث خاتم سليمان في أصبعي، أما الرابع فلا أبتعد عنه ثانية، أكن له جنونا في محبتي، لا أفارقه لحظة من كثرة حبي له. إلا أنني بمجرد أن يختفي عن عيني ، أنزل بسمومي عليه طولا وعرضا ، بمناسبة و بدون مناسبة... لا أعرف لماذا أفعل ذلك؟ هو يعاملني بكل طيبة إلا أن لسانه جارح للغاية ، يوبخ تقاعسي في عملي، ويلومني لكثرة تجوالي في الشوارع عوضا من الاجتهاد في عملي. ثم يمطرني بقوله الذي حفظته عن ظهر قلب » صديقك من صدقك .«

هذا يغضبني و يزيد من حقدي عليه. تمنيته لو أصبح سرابا هواء ترابا .والثاني يملأ فراغي، يعاملني بكل طيبة مجنونة، ويستمع لثرثرتي بكل تهذيب لا يقاطعني أبدا، أحيانا أحس عيناه تغمضان من كثرة إطنابي وتكراري لنفس الحديث رغم أنني أضيف عليه شيء من البهارات. حفظ كل ما عندي، أحسه لم يعد يستحسن كلامي. أصبح كلامي عنده مجرد اجترار في تكرار ينمّ عن فراغي وحبي للثرثرة فقط . هو أيضا صرت أكرهه ، لأنه يتهرب مني. أشغله بأعمالي كلما سنحت لي الفرصة. ولم لا؟ «صديقك من كتب لك» .عجيب غريب أمره كيف يستطيع فعل أشياء وأشياء تراه طائرا هنا وهناك ، ينجز ما لم أنجزه في دهر، يا إلهي كيف يفعل ذلك؟ أصبحت لا أطيق إسمه الذي أسمعه أينما حللت ورحلت، في نومي ويقظتي ... بل وحتى في أحلامي أرى دما يسيل من ضلوعه ولم يمت اللعين بعد ... تمنيت له الموت لكنه ما زال حيا يرزق. أما الآخر فشعوري نحوه غريب عجيب. أحبه وأكرهه ثم أكرهه وأحبه بل مشكلتي لا أستطيع الاستغناء عنه. تربطني به أشياء وأشياء، إلا أنه يتبارى معي أنا ... ومن يكن حتى يفعل ذلك ؟ أنا صاحبة كل الرقي، وتكونت جنينا في رحم راقية، وخرجت للدنيا على سرير راق ودرست كل الرقي في مدرسة الراقيين. فصارت خطواتي وحركاتي ولباسي وكلماتي رقي في رقي. وصاحبي ينتزع مني ذلك لن أسمح له ... تشد على شفتيها حتى سالت منها قطرات من دم. هذا بالتحديد مشكلتي معه تختلف عن سابقه.

مرة كنت في بيته و كان يائسا من حال الدنيا، أثقله تعب الغربة ومشاكلها فسلمني أمانة له على ألا أريها لأحد. أخذت منه الأمانة وابتسامتي ربتت على كتفه ثم انسحبت مهرولة من بيته أمشي بسرعة البرق لأصل بيتي وأكشف عن الأمانة، فيا للهول ما رأيت. لم اصدق نفسي. ذهبت إلى صديقي الأول والثاني والثالث فأطلعتهم عن الأمانة. كنت أرى في عين أحدهم الاستياء والغضب لتصرفي. جحظت عيناه. لم يصدق جحود شذوذي. ثار عليّ بقسوته الصحراوية البدائية ... ثورة عارمة تشبه سيول البراكين التي تهدم السدود والجبال وتغرق المدن وقراها بالحمم ...

لم يعير لي أي إعتبار، أنا الكريمة، الرقيقة، الأريحية الروح لم يعجبه هول ما رأى. و من لباقته المفتعلة، تمالك نفسه واستمع لتفاهة قولي، ورغم حرصه على ألا يجرح شعوري إلا أنني كنت أرى شرارة الغضب الظالم في عينيه. انهال عليّ بشلال نزق من كلمات أبكي سكوني الموجع، وأيقظ ألمي الذي كان مستلقيا على سريري الأبدي. كلماته تدوي كالرّعد، تومض كالبرق

كيف سوت لك نفسك أن تفعل ما فعلت؟

لا ... مممم ... ولكن .... بس أنا ... أعني ... أنت لم تعرف كيف كان يعاملني؟

ما دخل معاملته لك بفتح أمانته؟ ألا تعرفين أنه من صفات المؤمن حفظ الأمانة والصدق؟ حرق قلبي ؟ هل قلبك لا يعرف أنّ صديقك هذا الذي فتحت أمانته لا يقول عنك إلا خيرا.

أنت لا تعرفه جيدا ولا تعرف أنفته الخاوية، دائما ينافسني وكأنه غريمي.

_ما فعلته لا يمكن تصديقه ويستدعي الحذر منك ، فمن يفتح أمانة صديق لا يمكن الوثوق به مع أصدقاء آخرين!!

_لكن أنت لست بغريب ان أطلعتك عن الأمانة .

_هو أيضا ليس بغريب عنك وتقضي معه معظم الأوقات أكثر مما تقضيها معي .

كانت تتلعثم وتتمتم وفجأة انطلق لسانها ، واسترسل كالرشاش مبررة فعلتها بأمور أكثر تفاهة من الفعل نفسه. وأنا واقف من دهشتي وفمي مفتوح كسمكة في الماء مصدوم لما أسمع . أحسست أنني أختنق بربطة عنقي، أحاول فكها . عرق ينزل على جبيني ومن داخلي. أصابني غضب كل العالم وعيناي ستنزلقان من محجريها من شدة صدمة ما أرى وما أسمع ... وما زالت تعوي ككلب لم يذق طعم الأكل منذ زمن طويل. جوع في نفسه جعله وحشا ضاريا، يجرح بمخالب لا ترحم. ألوم نفسي وأنا مازلت واقفا كالأصم وهي ما زالت مسترسلة في ثرثرتها الفارغة التي تنثر حقدا لا يستطيعه طابور من الشياطين.

كيف استطعت تحمل هذه اللعنة كل هذه السنين؟ وأنا أعرف أنها هي التي قطعت علاقتي بعمر وقطعت علاقة عمر بزيد واحتفظت بنا نحن الثلاثة الأغبياء، لأننا لم نواجهها كي تفتح عقلها على أفعال الشر التي تقوم بها!! حملت نفسي على عجل عند أصدقائي الثلاثة متدمرة وقبل أن أفتح فمي لهم وجدت سوأتي عارية عندهم.

# صرخة مونش

التقط من بين كل تلك الأوراق المتزاحمة علي المائدة تلك الورقة المنكمشة التي من المفروض أن تلقى في القمامة .فتحها محملقا بين سطورها دقائق حسبتها دهرا .سطور أعرفها كما قلمي .كلماتها تفر حينا وتركض حينا آخر وبين الإقبال والأدبار ، تتلاشى الكلمات على جسد تلك الورقة العارية في منافي من صمت وسكون .

في ذلك المكان البعيد عن كل الأوطان، وقفت تلك الكلمات عند مفترق الطرق، كما لو كانت جليدا .كلمات كانت تحلم بالمدى، شاردة، حاسرة القلب، تصطك بين جبال الموج التي تضرم فزعها الغافي وتيارات التيه تقود حروفي لتختفي في ظلام بارد كالصقيع .سواد حالك يحضن الليل وينام في زوايا السكون فاقدا كل شيء .سواد محفور في حنايا القلب، يجامل ويؤلم وينخر ويتعب وفي الظلام وشاح بكل الألوان.

هكذا كانت تلك السطور مجنونة في متاهات الشرود، تتهافت في زحمة الأفكار المنكسرة، تئن بصوت مبحوح عن المساءات الماسية، وعن ظل منكسر، ووحدة مرتجفة وعن تنهدات تبكي ألم الغموض، والصمت المتواطئ في جحود وشذوذ وفراغ .

أهو الألق من القلق أو ارتباك الخوف من المجهول؟ أهو الماضي المخلوط بالحاضر ورهبة المستقبل أو سفر بين طرقات المنافي التي لا تنتهي أو فقط حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان؟

وقفت تلك الكلمات على السطور تكابد إدراك الحقيقة المسافرة في دروب لا تنتهي، متوسلة السماء أن تشفع لها .و في شرود تام خطت متثاقلة تحتضر مسافات الصمت التي كانت بيننا، محاولة أن تتمسك بما تبقى من الأشياء .لملمت كلماتها المبعثرة في حروف هجائية في حين رفع رأسه صوبها وبابتسامة ماكرة تدفقت كبريق سرعان ما تحطم.

هل أنت التي كتبت ما في السطور أو أحد أحرقت ريشته نار الألوان؟

رياح مازالت تخسف الفضاء وتتهاوى متعثرة في الأعالي لتنمو عواصف ترافقها أصوات كالرعد والموت .

غربت الشمس وانقلبت السماء فجأة إلي لون أحمر، ساد صمت بيننا، كانا يتطلعان لبعضهما ويتحدثان بلغة العيون .وقفت من مكاني وتطلعت من النافدة إلى مياه البحر .رأيتها وكأن مياهها تحولت إلى دماء وألسنة من لهب .مازال يتحدثان في صمت بلغة العيون، أما أنا فمكثت مسمرة في نفس الموضع مرتعدة لما أراه من هول الطبيعة . أحسست أن صرخة أزلية كانت تلج الطبيعة بأسرها».نظرت إليه وقلت.

-ومن سيكون؟

التفت إلى التي كانت تجلس على الأريكة، كانت تبتسم هواء وفراغا في سراب .

-ناوليني ورقة وقلما

نطت تلك من مكانها وناولته ورقة وقلما، التفت إلي ثم إليها وقال:

-صفي لي هذه اللوحة....

ذهلت أول الأمر لهذا الطلب، ولماذا يريدني أن أصف له لوحته المعلقة في الهواء .... كيف لي وأنا لا أفقه في الفن شيئا؟ كما أن الصورة لا تحتاج إلى وصف ... فهي تعبر عن نفسها .... عن صراخها الذي يبعثر كل الفصول .يشعل الصحاري بلسعات من نيران .فحيح من لعنات أغلقت كل المسارات، هسيس نساء الهوادر يثقب السمع ، تطلق أصواتا مبحوحة بالنقيق فوق مساحات من أوهام وعبر دهاليز الخوف، تشهق دمعا وأطنانا من كآبة، تنسج للشمس حكايات مشحونة بالمسخ لتنضج عجبا وغرابة .

وضعت الورقة والقلم على الطاولة، وقلت له سأرسمها لك، لكن ليس بقلم ولا ريشة، سترسمها لك كلماتي، سأصف لك لوحتك المعلقة في الفراغ .تطلعت إلى اللوحة، تأملتها طويلا، كانت هي صامتة تتخبط بين ضلوع البرق في سكون متبختر، تبحث عن وطن يأويها في هدوء مفتعل، في جلسة متشنجة أنهكها ذوبان عنيد داخل إطار من فراغ .

ابتسم وقال:

-أنتظر بلاغة الوصف كما الذي قرأته في ورقتك المتجعدة هذه...

- ماذا تريدني أن أصف، إنني لا أرى إلا جمجمة موت مطموسة الملامح ويدان تضغطان على الصدغين بقوة وتغطي أذنين تمارسان الشذوذ. وجه تشوه من شدة الخوف، ملامحه غامضة، عينان جاحظتان، خاويتان تجوبان عن سنوات يسحقها التشرد في ليال الوحدة، فم يصرخ ذبول الخريف المصفر تحت جذوة جسد مهتر من كثرة التوتر. صرخة خائفة دوت لها الصدى، وشعور بالحزن بعد فوات الأوان. صرخة عجزت عن سلب العذاب واليأس وفقدان الأمل.

تعرّت كل الأشياء، وتعثرت الأزمنة المستلبة، فرقعها عويل تلك الصرخة، فتغيرت ألوان الأشياء وساد الإحمرار في الفضاء لون دماء مهدورة تفجرت على الأرصفة. أما السماء والطبيعة المحيطة والألوان الصارخة تضفي أجواء من الرعب والغرابة.

توقفت عن الكلام، كان هو صامتا ينصت إلي باهتمام ، حوّلت بصري عن تلك الصورة القابعة في الفراغ وقلت:

لا أدري إن كانت الصرخة من السماء أو من أعماق نفسها؟

-ربما مزيج منهما معا ...

-كما أنني لا أدري إن كانت الصرخة نتيجة الاحمرار في السماء أم الصرخة التي سببت ذلك الاحمرار؟ أما الرعب الذي ينفجر من عينيها، هل هو نتيجة سماع صرخة أرعبتها أم صرختها التي أرعبت المكان؟ أما الشخصان القادمان في الصورة ربما أنا وأنت.

- أنا وأنت... ؟

-لا ... لا أعتقد ذلك ... إنهما ... ليس مهما فهما ليسا موجودان هنا حاليا

-ماذا تقصدين، أليس موجودان في الصورة؟

نعم إنهما في الصورة و خارج الصورة .... كما أن وجودهما سيظل خالدا كما في الصورة ... بين هذين الشخصيتين وتلك التي تصرخ في الصورة هذا الجسر المشاد فوق المياه، يفصل بينها وبينهما .حيث في الطرف الثاني من الجسر يتابعان المسير بهدوء.

-آها

-إلا أن الصرخة لم نعد نسمعها ولكننا نرى فقط فما مفتوحا كفم سمكة ...

توقفت عن الكلام قليلا ، ثم سألته

-بالمناسبة أين اختفت الصرخة؟

لم أنتظر جوابه، واصلت كلامي

-الصرخة لم تختفي من هنا، أنها قابعة معلقة في زوايا جدران بيتك ... لكن خارج هذا البيت فهي قد انطفأت و لم يعد يسمع لها طنين .

# انفصال

كان يمشي وسط الليل هائما يتبع قدميه الحافيتين في أزقة تبدو ملامحها جافة قاحلة حزينة، يفترش قلق وحدته من وراء غرف داخله العارية والخالية من اية رغبة حقيقية ، بسبب حروب داخلية كانت وأخرى بدأت. ينفث حسراته المرتعشة في جنون، يتطلع إلي فضاء الغرفة الرمادية التي تشبه السأم. يغوص في ذاكرته الخاوية المبللة بالغضب باحثا عن جحيم وهمي، عن وردة سادية صفراء. يتذكر حين سمعها تندب ماض مليء بالقهر والظلم حين كانت معه. يقهقه عاليا في فضاء صمت تلك الغرفة الهزيلة التي تتكأ على سنواته الخاوية .أية أشلاء مبعثرة تريدين أن تلملمين وأي ستار على آخر فصل في حياتك تريدين أن تسدلين؟ تحاولين ... تريدين .. تتمنين ... تحلمين ! ... دعيك في حلمك الكاذب، في بهتانك على الناس وحتى على من كان أقربهم إليك. على من تريدين أن تنتصرين؟ هل على هزائمك المتتالية أو على بقايا سنواتك الخاوية؟ كنت وردة لكن شائكة . تدمي أكثر مما تسر الناظر .تعتقدين أنك صرت امرأة أخرى... كلا ... مازلت كما أنت وعلى أسوأ. مازلت ذلك الشر المطلق المغلف برداء مزيف من الطيبة .مازلت حية رقطاء في ثوب حمل .لم أر فيك اختلافا ....فن الثرثرة والحديث بالبهتان ونقل القيل والقال وخلق العداوة تعبرين من خلال ذلك عن عقد نقص وغيرة وحسد يعجز كل نسل فرويد عن معالجته وتخليصك منه، لأن هذا السلوك أصبح طبعا متاصلا وإلا لماذا قالت العرب قديما : من شبّ على شيء شاب عليه!!!يا إلهي هنا فقط لا أريد أن يصدق قول العرب ، لأن معناه استمارية هذا السلوك من المهد إلى اللحد، و هذا يعني دخولك موسوعة جينسس في عدد ضحاياك و عدد من يرمون بصورتك بعيدا عن أعينهم ومخيلتهم، وإلا أيضا لماذا قالت العرب قديما وحديثا :الباب اللي بيجي منو الريح سدّو واستريح...ارتحنا... ارتحنا من إغلاق باب واحد هو باب ريحك المتعفن بالحقد والحسد . من قال لك أنك تغيرت ؟ خيالك الواسع في إدمان ثرثرة نساء الهوادر مازال يكتظ في فضاءات المنازل والمكاتب والمطاعم و المساجد

أيضا. مازلت ترتشفين قصصا عن الناس بتوابل من خيالك خلسة ومازالت اسطواناتك المحطمة ترغمينها على الدوران. كم جرحت من الأصدقاء، وكم استهترت بالناس وتكبرت عليهم وأنت أصغر من أصغر درة في الوجود لتصرفاتك البغيضة .كان يلملم غبار عصبيته، يمسح من عين مذفاه الدمع، لطالما أراد أن يدفن ذلك الماضي المرير معها. جميلة مزركشة بروح مليئة بالضغينة والحقد والحسد. أسمحي لي ايتها العقرب أن أقول لك :حقا ما قلت. ملامح وجهك ما عادت تشدني إليك، بعدما اكتشفت أن وراء تلك الملامح نوايا أخرى ترعب وتفتش عن الحقد والكراهية المغلفة بحب متصنع لا وجود له في قلبك وروحك . ما تبقى منك في ذاكرتي لم أجد فيه شيء يروقني، لذلك كنت أتنقل من واحدة لأخرى، وكنت تعرفين ذلك. كنت أجد فيهن البراءة التي لم أعرفها فيك .كانت جملهن تصل القلب وتنعشه، بينما كلماتك كانت تسم القلب وتوقفه. ....يا إلهي أنت اللعنة بكامل صفاتها. أنت نموذج الكراهية التي لا يستحقها من توجهين أحقادك لهم.

يلتفت في ذلك الظلام .... مابالك تفصح السر المتراخي عن ذاكرة عكرة كادت أن تختفي وراء غبار من العتمة وظلام يختلس هذيانه الشرود؟ كان يلون تأمله بجمل تنفجر وسط تلك الوحدة المظلمة .نعم، كنت قطعة من أثاث البيت لكن لكن لم تكوني ديكورا اجتماعيا ولا قطعة ثرية.... كنت عبارة عن مزهرية تقليدية غير أصلية. كفى !... سئمت من اتهامك لي بالكذب؟ أنا لم أقل أنني كنت أستاذا في جامعة السوربون. أنت التي اعطيتني هذه الرتبة حتى تتباهين بها على من تدعي عليهن بالإيتيكيت والعصرنة .كنت مجرد أستاذ في الصف التاسع....! من الكذاب أيتها الكذابة؟ ومن يتحدث عن مآثره وأمجاده الخاوية ...؟ أفعالك كلها ترتعش في جنون....جملك منمقة مجنونة تتهاوى فوق جحيمك التي تدعي أنني سببه. نعم، كانوا ينطقون جملا سليمة سالمة من السم والبهتان، وكان من واجبي أن اسكت فحيح صوتك الذي لا يخرج إلا ليجرح أو ليتهكم ... أو يكذب على الناس بحروف وكلمات من خيالاتك فقط .... مثلك يلزمه أن يصمت إلى الأبد ... فحيحك مازال ايتها العقرب كما هو لم يتغير فيك شيئا . التغيير حصل في خيالك فقط . أنت كما أنت، فلم تريدين أن تبدلين درجتك الجامعية بإتقان الكلام ... ماذا أتقنت حتى الآن وماذا أبدعت ....؟

سأقول لك أنك أبدعت فن الاتكال و فن الكسل و فن التمطط في الشوارع وفن شرب القهوة مخلوطة برسم قصص مثيرة للتقزز عن الناس أيتها الجميلة القبيحة ....! مرة أخرى تكذبين عليّ... من منعك عن قراءة الكتب والكتابة و من اتهمك بالانحراف والشر ... متى كانت الكتب رمزا للشر لأستاذ جامعي مثلي ... عفوا لأستاذ في الصف التاسع ... وتأتين الآن وتقولين أصبحت امرأة أخرى ... ماذا فعلت بكتبك وكتاباتك حين افترقنا. ألم أقل لك مازلت كما أنت ...؟ ينظر من وراء النافذة كان الظلام حالكا كقصة ماضيه، نار تسري في جسده المنهك، خطواته منهكة تتعثر على الصمت، تمزقه وحيداً في منفى أحزانه، تذرفه العين دموعا ورتابة. يتوقف هنيهة ثم يسترسل .

كنت أختار صديقاتي لأن اللواتي كنت تختارينهن كن على شاكلتك. أنسيت كم أذى سببته معهن وأذيت أمي بكلامك المسم؟ أنسيت ما قلته عن أخي الأكبر واتهمتيه بكل أنواع رذائلك وجئت بالعقارب مثلك ليشهدن زورا ضده. مثلك يجب أن يكبل بالسلاسل... لماذا تتقولين عليّ الكذب حتي الآن؟ قولي الحقيقة من كل زواياها ولا تخفي ما يظهرك على حقيقتك. يكفي الادعاء بأنك ضحيتي ... واتهامك أن عقدك المتراكمة هي سببي... أنت أنسان مهزوم قبل أن يولد، لا حول له ولا قوة. تعلمت الكلام هذا صحيح ...وأبرزت مخالبك، نعم ... ولكنك مازلت كما أنت ... كلماتك التي ارتقت في اتقانها تؤذي ومخالبك التي زادت طولا تدمي. هسيس صوتك يثقب السمع.

نعم، أنا غبي كما تقولين عني، لأنني ارتبطت بفاشلة مثلك، عديمة الاحساس، لا تقدس الحب وتلبس رداء الحسد. لماذا لم تصفقين الباب وتنصرفين؟ ألم تفعل نورا ذلك منذ مئة سنة ولم تكن لديها شهادة جامعية ولا وظيفة؟ لكنك ممن يقال عنهم » يخاف ولا يخجل» ، لأن طبعك الإذلال والإذعان، الهزيمة والصراخ، الاتكالية والاعتماد على الغير. اذهبي حيث شئت وانزعي ثوب ذلك الحقد وابحثي عن حب يشفيك من عقدك ، إن وجدته. لأنني فعلا هذا ما أتمناه لك حتي تخرجين من أمراضك...ولكن هل هذا ممكن لمن أدمن الحقد والكذب والافتراء والضغينة؟ إنه موضوع موكل لأحفاد فرويد علهم يساعدون ويجدون جوابا!!!

# احتاج إلى طبيب نفسي

دخلت إلى عيادة الطبيب الذي أجلسها على أريكة واسعة ومريحة. كانت متذمرة من نفسيتها التي تتذبذب بين الضعيفة و القوية، الرقيقة و القاسية.... يا إلهي ماذا حصل لي؟ هل أعاني من مرض نفسي..؟ هل أحتاج إلى طبيب نفسي؟

إغرورقت عيناها بالدموع . صوتها مخنوق يخرج على شكل شهقات. أنا لست طبيعية أثور غضبا وأبكي حرقة حين أتذكر بعض الأشياء .

- سأعطيك حقنة مهدئة تهدىء من روعك وبعدها يمكننا أن نواصل حديثنا .

جلس الطبيب على كرسي مقابل أمل ، نظر إليها بابتسامة دافئة جعلتها تشعر بهدوء - .ما هي الأمور التي تثير غضبك؟

لم تعرف كيف ستبدأ حكاية عشر سنوات من المرارة والأسى والسلوك المزدوج لإنسانة كانت يوما تعتبرها صديقة .

-لم تكن تطيق من يحيط بي من جيران، ولا يعجبها الحي الذي أسكن فيه، حيث به أشكال في نظرها حثالات تعيش عالة على المجتمع بدون عمل. شياطين ظالمين، يسرحون ويمرحون في كيل السوء والتجني وإيذاء الناس .

-هل صديقتك لها وظيفة تشغلها؟

-لا، حاولت كثيرا لكن مؤهلاتها لم تسمح لها. لم تكن تحسن لغة البلد، كما أنها في سن يتقاعد فيه المرء عادة .

إن جاءت عندي جارة كانت تقلب شفتيها متأففة منها. كنت أشعر بالحرج ولا أعرف كيف أحسن التصرف. واجهتها مرارا بسلوكها وقذفها للناس بالسوء في بيتي .تعبت من زياراتها المستمرة طيلة السنة. كنت أترك أعمالي لأتفرغ لسماع تشاؤمها من الحياة، وسماءها الداكنة التي تشبه السأم، وعن ذاكرتها القاحلة والملونة بالحزن مع طليقها «الطاغوت»....

وعن الطوفان المخيف من الجحيم الذي يمزق أحشاءها و عن حلمها المخنوق الذي يتهاوى فوق الألم. عن سعادة أجهضها بدوي متخلف هو وأهله، فتركها تائهة في سراب الحياة تلملم الكوابيس في الليل. و هي المتمدنة المسالمة التي تحمل بحرا من الحب للعالم، تعشق المسيح ، لكنها تسب خالقة إن غضبت. هي الوديعة الرقيقة التي أغلق عليها ذلك المتسلط باب السعادة فتكسرت وانهارت هي المتمدنة وأهلها. لم تترك أحدا إلا وقذفته بلسانها السليط، باطنها مملوء بالعدوانية، كل من انتقد قدراتها تدعو عليه بالموت، وكأن الله حاضر لاستقبال دعوات سمها وتنفيذها فورا ، هي تعتقد أن الله العظيم ياتمر بأمرها فلا تكف عن دعوات الموت والقتل وتالمرض لكل من لا يعجبها من الذكور والإناث! ما يثير دهشتي انها تنتقد وتلعن أناسا لم تلتق بهم في حياتها، فقط أنها سمعت عن قدراتهم ونجاحهم من أصدقائها الذين ينتقدون تقاعسها. وعندما لا تستطيع أن تنفذ رغباتها، ينعكس ذلك في كلامها وانتقاداتها للآخرين. مع العلم أنها أنسانة ضعيفة الفعالية في كافة مجالات الحياة، في الحياة الزوجية كانت هي الملاك الضحية تحت براثين طاغوت شرير، كان السبب في إحباط تقدمها. وعندما أواسيها وأشجعها بأن الخير إلى الأمام. تجيب، «يا أختي ، ما يهمني الآن هو الاستمتاع بأحفادي. فلم الحسرة إذا وكثرة اجترار الماضي والندم عن عدم الوصول إلى ما كانت تصبو إليه؟ يؤلمها من ينجح ويتفوق، تريد أن تفعل مثله، لكنها مشلولة لا تتقدم، بل لا تعرف طلايقا للنجاح لأنها لا تفعل ما يضعها على بداية ذلك الطريق، فتضيع وقتها في السباب والافتراء والطلب من الخالق بموت وقتل و مرض أي ناجح لا يلبي طلباتها التي هي غالبا محاولات للوصول لبداية طريق النجاح.

ولأن ليست لها وظيفة فهي تجرجر أقدامها من بيت إلى آخر، ترتبتهم حسب أيام الشهر، وحين تزورني، تطلب مني ألا يعرف الاخرون أنها كانت في زيارتي .فلماذا تتسلل ناقلة أخبار الناس تجترها في بيتي وتضيع وقتي؟ كانت تزوني مرات في الأسبوع وتمكث في بيتي من الصباح إلى آخر الليل ثم تشكو أنها لا تستطيع أن تنتج .كيف لشخص يقضي أيامه كلها من بيت إلى آخر أن ينتج شيئا؟ من يوعظها، تبغضه، وتنتقده

.و من يواجهها بكلمة الحق، يصير على لسانها، تقذفه بكل أنواع الذم وتقوله كلاما عن الآخرين. دائمة الشكوى والعتاب والنقد الهدام، فكان ذلك دائما ينعكس عليها في محيطها. أكاد أجن، من هذا السلوك يا دكتور.

لم أعد أتحمل هذه «الظاهرة» في حياتي! شخصية ازدواجية في التعامل حسب ذوقها ومصلحتها وحسب المقاصد الخفية في نفسيتها. تتقمص في لباس الحيل و الخداع من وراء ستار البراءة ولسانها يتلون بأشكال متعددة .تعترف بالخير والثناء والمكانة إذا كانت هي المعنية وإلاّ مزقها الحسد .تحب المدح ولو على فراغ. لا تخجل من التسلق وطلب المساعدة لنيل ما لا تستطيع فعله. تتقرب إلى أصحاب القرار لتحقيق ما لا تستطيع تحقيقه وتتسلح بكل أنواع التملق لهم حتى لا تفقد تأييدهم. التآمر يسيطر على روحها، تخترع القيل والقال بين الأصدقاء حتى تفرقهم عن بعضهم وتحتفظ هي بهم كلهم .تنتقد الأجانب في هذا البلد الذين يستغلون قانون البلد في حين تتحسر أنها ليس لها ذكاؤهم ووقاحتهم حتى تلبي حاجياتها المادية من مساعدات وشراء منزل كما هم فعلوا .ساعدتها مرة في الحصول علي عمل، ومكثت سنتين تعمل في تلك المؤسسة. كنت أتوسل للمسؤولة أن توظفها وتتيح لها الفرصة وتوفقت في ذلك، حتى أن كثرة الحاحي على مديرة العمل جعلها تسألني : لماذا تريدين مساعدتها ؟. فيكون جوابي: لأنها صديقة عزيزة وتستحق فرصة .أساعدها في حين تطلب مساعدتي و تدعي على الآخرين أنها هي من قامت بذلك. كان شكرها لي أنها فرقت بيني و بين من أحبهم من أصدقائي. أتذكر مرة أخبرتني بمرض صديق، فاتصلت به لأطمئن عليه، وعندما علمت بالخبر انفجرت قائلة إنه لا يحب أن يخبر أحدا. فلماذا تخبريني إذا؟ أصبحت أخاف من شخصيتها، أحيانا حين تنظر إليّ تتغير تقاسيم وجهها و ترتعش بجنون. لم أعد أعرف إن كانت صديقة أو عدوة، حيث أنها تعيش بتلك الشخصيتين حسب الضرورة. فمعيار الولاء والعداء عندها مصلحتها. تفرط في ذم الآخرين أو تزكيتهم وفق معاييرها ورضاها .

جئتك يا دكتور بعد أن أخبرت صديقة لي عن حالي مع هذه الإنسانة، كنت في حالة هيستيريا من الغضب والحزن، أبكي كالمجنون على علاقة تمرضني، تؤلمني، تغيظني بل ستقودني إلى الجنون. ربما جننت يا دكتور؟ إنني أفقد صوابي حين أتذكرها. أنا من أصبحت ذو شخصيتين ، واحدة طيبة هادئة حالمة وأخرى يائسة تحمل كل غضب العالم حين أذكرها. هكذا قالت صديقتي ونصحتني أن أذهب إلى طبيب نفسي .

انفجرت أمل تبكي بألم وتسأل الطبيب : هل بي جنوح ثورة عارمة تشبه سيول البراكين؟ هل ألمي وغضبي هذا يهدم السدود والجبال ويغرق المدن وقراها بالحمم من غير اعتبار لها ولحالتها؟ لم أعد أعرف من المريض هنا؟ أأنا أم هي؟ لا أنا المريضة ربما. لأنها هي تعرف كيف تمثل الرقة والسلوك الرائع والروح الأريحية لتلبية جوع لكبتها. وأنا من أحتاج لدواء لأنني لا أحسن النفاق ولا التملق والكذب، أحسن فقط أن أكون ذاتي، أعكس ما في قلبي بصراحة سواء كان سلبا أم أيجابا .

وقف الطبيب من مكانه ورجع إلي مكتبه، وقال: « في علم النفس أن من يؤذي الآخرين هو من يحتاج الى طبيب نفسي. متأسف لا أستطيع أن أعطيك دواء لأنك لست أنت المريضة.» وتذكري يا أمل أنه في الطب ينصحون بالابتعاد عن بعض المرضى كي لا نصاب بأمراضهم.. هل فهمت وصفة الدواء..اترك ذلك لذكائك خاصة إذا تذكرت ووثقت من نفسك أنك لست مريضة..أتذكر صديقا من بلدك كان يترجم لي في بعض المواقف أمثالا عربية ، ومرة في موقف ما..قال لي عندنا مثل عربي يقول : الباب اللي بيجي منو الريح ، سدّو واستريح...انتبهي يا أمل كثرة الريح تعرضك للبرد.. سدّي هذا الباب ترتاحي من الريح وستشعرين بدفء من يحبونك وأعتقد أنهم كثيرون من حولك .

# شجرة الزقوم

عندما وصلت القافلة إلى تلك المنطقة لم أكن حينها أعرف أنها بلد شمس منتصف الليل. الغريب أننا حين وصلنا كان الوقت ظهرا ، وبعد الظهر بساعات كانت الشمس مازالت ساطعة. سألت أحد مواطني البلد عن الساعة فقال: التاسعة ليلا. لم أكن أستطع أن أصدق أول الأمر. أيعقل أن تبقى الشمس ساطعة إلى هذا الوقت الذي يقترب من منتصف الليل في بلادنا ، والجو دافئ في هذا الوقت من الليل. تعجبت من حكمة الخالق وفي هذه الأرض التي لم يسمع بها أهل بلدي ولا عن شمسها. سمعت عن منطقة في شمال غرب البلد وعن كرم أهلها وطيبتهم، فقررت أن استقر هناك. اشتريت بيتا بين الجبال الشاهقة وبين السهول والوديان واخضرار في كل مكان وزرقة السماء من فوق جنة الله في الأرض. كان بجواري ثلاث منازل تناثرت على أطراف تلك المنطقة الشاسعة . نادرا ما كنت أرى سكانها رغم أن علاقتي توطدت بهم. كان كل شيء جميلا في ذلك الصيف الجميل. زقزقة العصافير تغني للصباح، وغروب الشمس الذي لا يستطيع مغادرة المكان حتى في الليل. مياه الأنهار يسمع خريرها محدثا أيقاعا في الروح، ، وزرقة تلك السماء التي توحي بسلام المنطقة وهدوئها. كانت الطبيعة متناغمة بشكل ساحر، يبهر الروح وينعشها، ماذا يحتاج الإنسان إلا هدوء البال والطمأنينة. كل شيء كان رائعا إلى أن حل فصل «الصقيع»،فتغير كل شيء. اختفت الشمس كليا، فلم نعد نرى إلا ظلاما في ظلام .سواد حالك في الليل والنهار، وبرد يدخل العظام وينخرها .أمكث في البيت طويلا أخشى الخروج إلى الظلام، وحين كنت أطل من نافدة مطبخي كنت أرى زمهريرا يأتي من ناحية ذلك البيت الشاحب اللون كالموت، تتوسط حديقته شجرة منكوشة مجهولة لم أر مثلها من قبل، لم تكن موجودة في ذلك الصيف الجميل. شكلها قبيح مخيف. لماذا تخيفيني فقط أنا وحدي، بينما غيري كان يراها عكس ذلك .أهي الأذواق التي تختلف أو أن الطيور على شاكلتها تقع. أصبح هذا الفصل يرتدي شقاء خفيا، تقمعه لعنة الغضب ودموع غزيرة تسجنها الذاكرة. أصبحت الليالي كلها متشابهة يدثرها طوفان من السواد القاتم. ورائحة نتنة تغطي المكان، تدخل أنفي وتجمد أنفاسي .

لم أعد أستطيع أن أذهب إلى عملي. في الصباح مازال الظلام يخيم على المنطقة وفي المساء أيضا يدثر بردائه الأسود المكان. حاولت أن أرى النور في ذلك السواد الدامس، لم استطع، سواده يطغى وتلحقه كوابيس تخيفني .تزرع أشباحها في جوف الليلة بعد الأخرى.

يا إلهي، كيف سأذهب إلى عملي من هذا الطريق الذي يطل على ذلك البيت الشاحب المخيف بشجرت و هي تصيبني بالرجفة والشلل. ذهبت إلى البيت الثاني، عند جاري الذي كان يبعد عني بمسافة ثلاثين دقيقة مشيا عن الأقدام. أخبرته عن استيائي .

**ضحك وقال:**

-فقط تهيؤات... ذلك البيت الذي تمرين عليه إلى عملك من أجمل وأرقى بيوت المنطقة، أما تلك الشجرة التي تخيفك فهي من اشجار عدن، شكلها يبهر العين، نبتها من جنة، ثمرها يملئ البطن وورقها...

قاطعته وأنا مذهولة لذلك الوصف المرتجل كذبا.

-يا سيدي، لكنني...

كان يقهقه عاليا، ولا أدري إن كان يضحك عن «وهم» أو مرض نفسي اعتراني كما ادعى، وأنني أحتاج لطبيب نفسي أو أنه يكذبني رغم حقيقة تلك الشجرة الزقوم .

-لكن، أقسم لك، أن ما تقوله عن تلك الشجرة ليس حقيقيا. إن طولها أقل من نصف متر.

-إذا فهي ليست شجرة الزقوم كما تدعين.

-لكن، شكلها مخيف لم أعد أستطيع المرور من هناك. أفكر في الرحيل من هذه المنطقة .

-لا، لا، أيتها الجارة الطيبة، إن تلك الشجرة لفتنة تسري القلب وتنعشه، طلعها كأنه ريش الحمام.

-ريش الحمام؟

اقترب مني، ابتعدت بخطوات إلى الوراء ... وقفت أرتجف من ذلك الظلام الذي كان حواليه.

-لا أنت ولا جيرانك هناك يمكنهم الاستغناء عن تلك الشجرة .

-أرجوك، لا تكمل كلاما هراء. أنا لم أتذوق ثمارها ولن أفعل. إنها تقطع الأمعاء، ورائحتها نتنة ما أن تصل بيتا إلا وتفسده بأريحها المتعفن. ماء ثمارها يزيد من النار نارا ويجعل البطن من حميم .

غضب مني وكأنني أذيت له عزيزا. تغيرت نظرة الأشياء وأصبح الحق باطلا والباطل حقا، أصبح القصدير الذي يلمع ذهبا والذهب قصديرا. ضاع الحق في تلك الأرض «الجحيم» بعدما كانت جنة، تغيرت إلى نار تلسع سما بعدما ظهرت تلك الشجرة الزقوم. لا أحد يريد أن يصدقني. حتى الذين كانوا يترددون على تلك المنطقة ويجترون أوراقها النتنة، تقتلهم مرات كل يوم ومازالوا يأكلون منها. التفت إلى جاري بعد طول الحديث.

-•لا أستطيع المكوث هنا قرب هذه الشجرة الملعونة. إنها فتنة لكم أنتم فقط. لا أرى سوى أغصان من شياطين .يتدلى من جذعها فحيح ويغطي تجاعيدها ثمارا يابسة من كثرة السم الذي يسكنها. لا أريد البقاء هنا. لا أريد المكوث هنا ...

نظر إلي بعينين لا أعرف أن كانتا قد فقدتا «جارة» في تلك المنطقة شبه النائية أم هي نظرة غضب لأذني انتقدت «شجرة زقومه».

كسر غصنا من جذعها القصير جدا وكتب على الثلج بالحرف الكبير

إذهبي إلى......

# أسد يفترس صديقتي

كنت جالسة كعادتي في مكتبي أنهي تسجيل بعض الوثائق، فإذا بجرس الباب يرن. إنها «تانت كريمة». دخلت تزهو بمعطفها الأحمر «الارستقراطي الرث»، «الأنيق الممزق»، صحيح عمره ثلاثين سنة، لكنها اشترته من الشانزليزية في باريس و هذا يكفي عندها ، و لا أتذكر كم من أصفار وراء الدولار قالت لي أنها اشترته ، وكيف لي أن اتذكر وكل مرة ترفع الثمن أو تخفضه لضعف ذاكرته في تذكر عمليات التباهي المظهرية التي تعودتها ا. تقدّمت بخطواتها السريعة إلى داخل الشقة .

-كيفك! شو مشغولة ... الله يعطيك ألف عافية....

كانت تقول كلامها في حين تزيل المعطف والقبعة عن رأسها. كنت أرى بريق فرح في عينيها، هي التي كانت دائما متشائمة، مستاءة وحزينة من البطالة والوقت الكثير الذي لا تعرف كيف تمضيه .

أراك مبتسمة، من المؤكد تحملين خبرا سعيدا. المؤسسة التي اتصلت بها لتوظيفك أجابت بالقبول. أليس كذلك؟

-لا، مازلت أنتظر الجواب منهم .

ودخلت مباشرة إلى المطبخ، تلتفت بتوتّر: أين القهوة؟

-هاهي القهوة تنتظرك وترحّب بك أيضا .

-لقد رأيتك في منامي!!!....

انشرحت تقاسيم وجهها وأضافت، العجيب الغريب أنني لم أفكر فيك بتاتا، ولم تكوني في بالي على الإطلاق .

عدّلت من جلستها واسترسلت ساردة حلمها عني. كنت واقفة أمام بيت كبير جدا، وكنت أسمع صراخك يدوي المكان، وزئير الأسد الذي كان يفترسك. كان يقف رجل بجانبي و ينظر إليك بغضب ،و كنت أتوسل إليه أن يذهب لينقذك لكنه لم يكن يستجيب لطلبي .

فجأة يخرج رجل من ذلك البيت الكبير وهو يحملك على كتفه، كنت ملطخة بالدم، لم أكن أري سوى حذاءك الأسود هذا. وأشارت إلى حذائي الذي مع باقي الأحذية خارج المطبخ .

-آه ... وماذا جرى بعد ذلك؟

-وضعك ذلك الرجل بالقرب من بركة هناك، وكان يضع الماء على كتفيك فاختفت الجراح وأصبح لون كتفيك صافيا. بالمناسبة قبل أن آتي إليك أخبرت وائل ومراد وسميرة بالحلم .

بينما كانت تروي روايتها، ذهب فكري إلى المرة الأخيرة التي زراتني في البيت، كنت أهيء العشاء لعائلتي الصغيرة، وأتحدث إليها، حين التفت إليها لأشاركها الكلام، وجدت عيناها كرصاصتين ستخترق جسدي ، حتى أنني ارتبكت وشعور بالدهشة انتابني من تلك النظرة العدائية لجسمي. فتقترب بابتسامة يلونها النفاق والمكر: حين نكون سويا لا تلبسين الكعب العالي.

-يا إلهي يا «تانت كريمة» أنا لا ألبس الآن الكعب العالي، هل تريدينني أن أقطع شيئا من ساقي حتى ترتاحين. تذكرت حين كانت تحدّق طويلا إلي، وتذهب بفكرها خارج المكان، وعندما ترجع به تقول لي، تحدثت مع أم عبيد وأخبرتها متسائلة :كيف تتوفقين في عمل البيت ووظيفتك خارج البيت والرسم والنحت والسفر .

يا إلهي!!! أمعقول لا يشغلها شاغل إلا أنا... تراني في مناماتها وخيالاتها بالليل والنهار؟ وضعت يدها المتجعدة على كتفي، وابتسامة عريضة على محياها.

أما أنا فانتابتني دهشة مخلوطة بضحكة كالبكا، أمعقول يمكن لإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة من الحقد على الآخرين، لدرجة أنه يتمني أن يراهم مقتولين أو ممزقين بمخالب أسد؟ ومن ترى ذلك الرجل يا ترى الذي كان واقفا بجانبها ينظر بغضب وهي تتوسل إليه لإنقاذي؟ ربما قد يكون ذلك الذي توسوس في أذنيه بالسوء عليّ وعلى الآخرين، لدرجة أنه أصبح يرانا بعين الغضب وفي الحلم يرفض انقاذنا من تحت براثن الأسد الذي يفترسنا في أحلامها.

-أين ذهبت بفكرك؟ لا تخافي، نهاية الحلم كانت جيدة .

-لست خائفة ، أعرف أن كل إنسان يتخذ لنفسه في أحلامه ما يوافق ما يتمناه ويريده لنفسه والآخرين ، فالعفيف عفيف، والطائش طائش، والحسود حسود وهكذا .كل ما هناك أن النوم يخلع عن المرء قناع التصنع والرّياء، فتبدو حقيقته الباطنة على ما هي عليه، فيصارح كلّ منّا نفسه بما لا يجسر على التصريح به وهو في حال اليقظة .الحلم كما قالوا قديما : نسخة عمّا تريده لنفسك والآخرين..الحلم ليس أعمى..الحلم يستنسخ بصيرة الحالم..الحلم في المنام استنساخ لأحلام اليقظة..فلنحذر أسود البشر لأنها هي التي تفترسك في الأحلام...أو بالعكس أسود الأحلام نسخة من أسود البشر الذين يتمنون افتراسك في الواقع والحلم..حلم المنام وحلم اليقظة...فالأسد مفترس أينما كان في الحلم أو الغابة...يا إلهي كم في غابات البشر من أسود ، أسود الغابات أرحم منهم.

# لو كان القلم مثلهم لقتلته

## انطباعات وأوهام قصصية.:

أعرف أشياء أكثر من غيري، وقلمي غير كلّ الأقلام. يسيل حبره على الورق برشاقة وخفة وبلاغة .لا أكتب عن المواضيع التي تسيل لعاب القارئ الغربي على حساب ثقافتي وديني مع العلم أن ليس لي دين. ولا أكتب عن الأزمات بكل شتى أنواعها التي لا أعرفها عن تجربة. وأعتبر ذلك امتيازا كبيرا، بل يبدو لي أنّ ذلك هو ما يفسّر كلّ ما امتلكت من الامتيازات، عدا شخصيتي المرموقة التي دخلت إلى عالم القلم برقيّ ورقّة. أطلق عنان قلمي على السّطور بتحرر من كلّ القيود. أصلا لا أؤمن بشيء لدرجة أنني أوشكت أن أدفع حياتي ثمنا لذلك الامتياز .

كتبت عن الأيام السود مستعملة الحبر الأسود أردت به المبالغة في التعبير عن العازة والفقر بكلّ أنواعه، فقر الروح والعقل والسلوك، وإلا فكيف يمكن أن تكون الأيام سوداء. وحين انقلبَ عليّ الطقس وتغيرَت علي الأيام وولت، رأيت بعيني هاتين سواد السنين، فلم أعد أبصر شيئا. ذقت من مرارة الحياة ما لا أطيق وصفه وما لا يعرف مداه إلا الذين ذاقوا نفس ما ذقته من عذاب. لقد طال عطلي عن العمل وأنا ربة عائلة كبيرة تتكون مني أنا وأنا وأنا وأنا، عشرة أنفار من أنا، واحدة كبيرة في السن جزعت فاختلت والثانية صغيرة جاهلة لا تحسن التصرف. والثالثة لا تستطيع المكوث في البيت إلا للنوم في الليل والرابعة تصيح وتعوي كما المجنون على مدار الساعة والخامسة على وشك الجنون ... والسادسة تموت جسدا وغيرة من كل شيء حتى من الهواء الذي تتنفسه، لا يسلم أحد من انتقاداتها والسابعة ... والثامنة تعاني من عاهة في الروح والتاسعة إعاقة في الدماغ أما العاشرة فهي على وشك الانتحار .

حاول الأطباء معالجة كل أخواتي العشرة فلم يتوصلوا إلى العلاج العملي الشافي حتى يقضي على أمراضهم قضاء نهائيا ... وكيف لهم أن يقضوا عليّ أنا ؟ أنا من قضيت عليهم كلهم ليس بالقلم ولكن بلساني الأطول من قامتي .

صعب على الكتّاب أن يفهموا فلسفتي، ولا القرّاء الذين يضجرون من قراءة الصفحات الأولى لكتبي، أو يرمون بها تحت أسرّتهم لمدة عشر سنوات، حتى أنهم من خبثهم لا يضعونها مع باقي «الكتب المصفوفة في خزائن كتبهم ... تصوروا؟ لكنني أعذرهم.. لابدّ أن يعيشوا ما عشته كي يفهموا أفكاري التي أكتب عن تجاربي معها. لم أكن أبدا أجيد استثارة الناس ضدي، إلا أنني أمشي مع التيار وأطبّل مع الطبّال وأزمّر مع الزمّار في الوقت والزمن المناسب. إن غاص المرء في أغوار «دماغي» لن يجد فيه أثرا لنوايا عدوانية اتجاه أحد من الناس، على العكس سيجد أثرا لنوايا طيبة تجاه الجميع . تجاربي مع أولئك الناس التي كانت سيئة مفادها كان لصالحهم ولسمعتهم. فإن مثلا تحدّثوا في دواخلهم عن شيء، أسترق السّمع إليهم وأنقل هواجسهم وتعليقاتهم وذقدهم وأنثره على مسامع السهول والهضاب والجبال. فأجد نفسي فجأة مرفوعة محلّقة بأجنحة الغبطة وإن حدث رغما أن ارتكبت في حقّ غيري بعض الإساءات الصغيرة منها أو الكبيرة فإني أعزو ذلك إلى الشّهامة بعيدا عن النّوايا الخبيثة .

كم مرّت عليّ ليال طوال أشكو فيها الذي أبكاني. من هم حتى يتدخلوا في حبر قلمي ويحثونه أن يسيل أحرفا. ويتهكمون على تقاعسي وكسلي. كيف لهم أن يتعاملوا معي كتلميذة وأنّ ليس لي عمل إلا بعض الهوايات كشرب القهوة والمشي على عورات الناس والدّعس على أسرارهم بحذائي الممزق. أنا حرّة، ألا يفهمون؟ هم لم يدركوا شروري ومكائدي، لا يعرفون أنّ لي طرقا في الإقتصاص منهم وبأقصى ما يمكن من السرعة، مستعملة اللمز والغمز والرموز والطلاسم لأطلسم عقولهم وتتبلّد باسم هاجوج وماجوح وكيكموش وطالوج. يكفي أن يرتكب أحد ما منهم فعلة كريهة اتجاهي كي أجازيه على ذلك مباشرة .

يبدو لي أن اتهامهم بالبهتان ونقل أخبارهم بطريقة معكوسة للآخرين مع شيء من التوابل تظلّ أكثر فضلا وأكثر شرفا من الصّمت. لن أتجرّع نكساتي الكثيرة من جرّاء أفراحهم ونجاحاتهم وما يتلقونه من تشجيعات ومجاملات. لكم يؤلم أمعائي ويعصر قلبي ويقلق معدتي. لم أتعود الصمت أيا كان نوع فحيحي خيرا أم شرا.. فالصمت عندي علامة الفشل ، ولن أكون حسب مقاييسي هذه فاشلة أبدا ، فليس هناك أسهل من اختراع القصص التي أجيدها ويعجز عنها أمهر كتاب القصة العرب، ومهاراتي هذه رغم أنفهم تزداد حبكتها مهما زاد عدد غير المصدقين والمقاطعين لقراءتها.

الكذب عمره ليس قصيرا

إذا ليس من حلّ سوى الحرب، وإنا من ذوي المؤهلات الحربية. بطبيعتي الهجوم من حيث لا أدري، ذلك إحدى غرائزي. أهجم بطريقة تكتيكية حتى لا يتصوّرني «الآخرون» شرّا وأفعى، وإنما وردة في الأخلاق والسلوك العالي. فأكتفي بصنع الحكايات وحبكها بطريقة فنية أصور فيها عورات الناس وأسرارهم الدّفينة ، أبعث فيها الروح لتطير وتظهر للعيان الذين يعرفونهم. أعريهم كما حواء وآدم في الجنة، إلا أن عرائهم أضعه في النار. همّي وبؤسي لن يشفى حتى أحطّم لهم تلك الصورة التي في أبراجهم العالية وأزيل من أعين أصحابي تلك الصورة المثالية عنهم. أولاد كلب! لكم ضيّقوا عليّ في حياتي ولا أستطيع التّسلّق إليهم والوصول إلى مجدهم. لم يتركوا لي شيئا أتباهى به إلا تنظيف البيت على مدار الأيام والشهور والسنوات والتفنن في صنع المحاشي والمقانق و كافة أنواع الطبيخ، ولو أنني لا آكل اللحم لكنني أطعمه لضيوفي... تلك اللحظات الوحيدة حين أجمعهم حول مائدة اخترا عاتي أشعر بشيء من الفخر من إبداعي في سلق البطاطس وحشو الكوسة بالبصل والطماطم بالثوم. وحين يأكل ضيوفي مما أبدعته يثنون عليّ ويشكرون... تلك اللحظات تمدّني طاقة وأملا وفخرا بإبداعاتي ، وليس كما قالوا عني أولئك بأنني لا أحسن الإبداع. ماذا يعرفون عن الإبداع ....؟ إبداعاتهم عبارة عن خطابات ... خطابات ...

على الأقل طبخي ليس فيه خطابات ولا سرقة و صفات طبيخ من كتب بل هي وصفات طبيخية من صنعي وبراءة اختراعي في لحظات حنان على البشرية الجائعة لا مثيل لها حتى عند وكالة الأونروا .!!!

أمسكت القلم واسترسلت مسيلة حبره دموعا محرقة على ذكرياتي. لكم اتهموني بالكذب. كلنا نكذب ... كلنا علينا أن نكذب والحكمة بالنسبة لي هو أن ندرّب أنفسنا وننمي من قدرات ذكائنا على الكذب بعناية حتى لا ننسى ونغلط في الأرقام والأثمان حين نتبجح بمشترياتنا ولا نغلط في الألوان والأحداث التي نبتدعها حتى لا يكتشف أمرنا وتآمرنا. وذلك لأنني أتذكر دوما المثل العربي القائل « عمر الكذب قصير « ، وأنا بمهاراتي الطبيخية سأثبت للجميع كذب هذا المثل العربي، فكذبي أنا لن يكشفه حتى المنجمون منهم، ومن اكتشفه سأحاججه بمهارة فائقة، تجعله يشكّ في أنّ كذبي هو الحقيقة، وحقيقته هي الكذب القصير أو الطويل لا فرق. المهم حنان التعامل في وجوه الناس ، و ما سيأتي في ظهورهم أو في غيابهم فعلمه عندي أنا وحدي ، صدّقني السامعون أم لم يصدّقوا، فالمهم عندي الاستمرار في ممارسة عملي هذا، لأن التكاسل وعدم الممارسة يؤديان لضياع الخبرة...ومن يضحي بخبرة كهذه قلّ وجود من يتقنونها بحنان وألفة مثلي؟؟.

## الجولة قادمة:

ورغم وقوعي من الأعالي، سوف أنازلكم أيها الأوغاد. وتيقّنوا أن غايتي من وراء ذلك ليس من أجل الانتصار فقط وإنما لتعرفوا أنه لا خلاص من خيراتي و شروري. سأوظف كلّ طاقاتي و سأنازلكم بلساني ، لكنه نزال شريف يتلاءم ونقاوتي واخلاصي . حتى لو اضطررت للزيف والخداع ، أنبطح أحيانا أزحف وأحيانا أخرى أدوس على كرامتي وأتغافل عن مهابتي عاصرة قلمي أجره أحيانا وأرفعه أحيانا أخرى إلا أنه يظل منخفضا منصوبا على الأرض .

وفي إحدى الليالي النادية كغيرها والتي كنت أنامها مرارا ، وحين بدأ شخيري بعد أن ملني مضجعي من كثرة التقلب وتراخت أعصابي واسترخمت، استيقظت أنا ..وإحدى أخواتي على إثر وقعة عنيفة من السرير أيقظتني مذعورة، فإذا بها تقول لي وابتسامة عريضة على شفتيها: « ذهب الفقر وأقبل الغنى ... إنه الكنز يا أنا... إنه السعد آت ... لقد حلمت يسوع المسيح يقول لي ابشري، حديقتك وورودك تحتها كنز . لم أصدقها لأنني أعرف أنها تعاني من إعاقة في الدماغ. لكن في اليوم التالي وبعد أن غفلت ، استيقظ على أنا الأخرى تأتيني صارخة فأجد نفسي مقرفصة في السرير. ماذا ترين ؟ فتجيب والفرحة تطير من عينيها ... قائلة .... أتعرفين لقد رأيت موسى يحمل عصاه ويضرب بها في حديقة بيتنا فيخرج من تحت الورود كنوزا كثيرة ....تمالكت نفسي وقلت لها نامي وفي الصباح نتحدث عن الموضوع. تسعة ليالي متتالية وكلهن يأتين إلي واحدة تلو الأخرى ، أنا وأنا وأنا ، أمّا أنا فأقول لهن لا أؤمن بالأحلام ولا بأي شيء ...

وأنا ترد عليّ قائلة، أقسم بالرب أنني رأيت يسوع المسيح.!

وأخرى تقول لي بأنها رأت موسى الكليم

وأنا الأخرى تجيب لم لا تذهبي إلى الحديقة و سترين أن حلمنا حقيقة

-وأنا تقولي لي انهضي...انهضي فقد فرّج يسوع كربي وجاءني الرزق الذي كنت أطلبه بالمشقة فلم أظفر به

وأنا الأخرى تقول لي أنت يهرب الخير منك يا «ناكرة الخير»

وأخيرا قلت في نفسي لم لا أذهب وأجرّب حظي وأحفر في الحديقة تحت تلك الورود. انتظرت حتى الصباح، فهرولت مسرعة إلى الحديقة، وحفرت وحفرت أنا وأنا وأنا .... حفرت كل أرض الحديقة لم أترك شبرا منها . قلعت تلك الورود و الأشجار والنباتات ، ولم يبق في الحديقة إلا التراب المنكوش و أخيرا تقع يداي على علبة بها عشرات من الأقلام ....

الأقلام ...!؟ أهذا هو الكنز الذي حلمت به أنا ...؟ يا إلهي ... متى كانت القلم كنزا ...؟ ضاعت حديقتي... قتلت ورودي ... لم يبق شيئا .... حدقتي تبعثرت ... ورودي انقرضت ....وأزهاري ذبلت !!!..

قرفصت على الأرض وسط زحمة من كتل التراب في الحديقة أقلب الأقلام داخل العلبة، أتطلع إليها في غضب و يأس، أفكاري تقفز على متن عواصفي، و صراخي يتهافت في زحمة الفراغ بصوت عال وأنا أكسرّ تلك الأقلام واحدا تلو الآخر :

آه لو كانت الأقلام تجسّدهم في هذه اللحظة لقتلتها كلها .

# صدى من داخل زنزانة

كان الصدى يتردّد على مدار الساعة في تلك الغرفة المملوءة بالسواد، مفترشا قلقا مضطربا على أعقاب أزمنة الأزل، يحدث عذابات في الرّوح مع أقصى درجات الألم الحادّ المرفق بغثيان متواصل عبر سنين طويلة بداخل الزنزانة. شاخت وانتهت ولم يبق إلا رجلان متدلّيان من جسد منهك وضعف في البصر. لكن فمها ما زال يعمل كما جهاز الراديو لا يتعب من إرسال كلمات وكلمات عبر الهواء. وقفت بتثاقل متّجهة بخطوات مرتعشة تتهاوى في اضطراب إلى أن وصلت إلى باب الزنزانة. أمسكت بيدها القضبان وقهقهة تخرج من فمها معكسة صدى على الجدران. كيف يقولون عنّي مجنونة وأنا مازلت أتمتّع بكلّ حواسي. يمكنني أن أسمع من بعيد سقوط الإبرة على الأرض، واروي حكايات تشبه السّأم وأشرب القهوة المخلوطة بتوابل النّقد والذمّ والافتراء. هم المجانين ولست أنا. تبتعد عن القضبان وتقف في وسط الصمت السّاكن هنيهة وعينا ها جاحظتان في اتجاه الجدران الذي يقابلها وكأنها تقرأ صفحات من الذاكرة ثمّ تطلق ضحكة مجلجلة علت في فضاءات ذلك السقف المعتّم، وتتهاوى فوق الوجع ويُسدُور الخوف . صحيح كنت عصبية، لكنكم لماذا ستقولون عني أنني مجنونة؟ لقد أضناني المرض، إلاّ أنّه وهبني قوّة في إحساسي. أشعلها. جعلني أسمع الأشياء .... أشياء كثيرة في الجحيم .... وأرى الشياطين ترقص على اللهيب والجنّ يعزف سانفونية النّصر .. إذا كيف أكون مجنونة وأنا باستطاعتي أن أروي لكم الحكاية بهدوء ... كلّ الحكاية.

هم المجانين الساديون، هم من يقفزون من فوق الجدار ويتسلقون إلى الأعالي لكنّهم يسقطون. نعم، سقطوا. تميل برأسها نحو كتفها الأيسر وتنزل دموع حارّة على خدّيها المتجعّدتين. نعم، أنا الذي أسقطتهم واحدا تلو الآخر .تضحك ... تبكي ... تصمت في شرود ومازال رأسها منحنيا على كتفها. تثقله كلماتها المخنوقة. هل تريدون أن تعرفوا كيف أسقطتهم كما ورق الخريف حين يودّع أغصان الشجر؟ تركتهم يتهاووا من الأفق ويُطرحون أشلاء على وجع أبدي. ما أجمل منظرهم يتألّمون يصرخون ... يغرقون ثم تبتلعهم موجة عاتية. تنتفض، تنظر بحذر شديد إلى يمينها وشمالها وتضع يدها على فمها لتهمس للظلمة القلقة والمرتبكة بالمجهول. سأخبركم الحكاية. نعم سأخبركم. صعب أن أفسّر لكم كيف انتابتني الفكرة. تلك الفكرة كانت تراودني ليلا نهارا. أحبّهم ... لم يؤذونني قط، لم يجرحونني بكلمة. لكن تحفيزهم لي كان يهبّ على جسدي كحجر من جحيم. أحدهم بالذات كان يشعل صحرائي نارا، أمّا الآخر فكانت ابتسامته الدّائمة على وجهه تؤرقني، تعذبني. كيف يبتسم دائما؟ ألا تتعب شفتاه من الإبتسام غير راع تعثري على بقايا سنواتي الخاوية، والثالث لا ييأس من مبارزتي .

تصمت هنيهة. تلتفت إلى باب الزنزانة، تهرول بخطواتها المتثاقلة إليها وتصرخ: «اسمعوني... أين أنتم أيها الحرّاس؟ لا تخلطوا بيني وبين شخص آخر. أنا لست طاغوتا ولا غولا. إنني نقيض ذلك الصنف من الكائنات البشرية التي كنت أحتكّ بها. أنا تلميذة إله المحبّة. لا أريد إلاّ الإصلاح. لقد كانوا فاسدين، يعثون في الأرض مرحا يتبجّحون بقيمهم المعكوسة المتناقضة للعالم الواقعي. إنسانيتهم مشوّهة ومزيّفة. تتراجع بخطواة محطّمة إلى الخلف، يقلقها التّعب، فتتّجه إلى إحدى زوايا الزنزانة تتّكأ عليها لتتهاوى على وحدتها رذاذا. تبحث عن روحها. لم تجدها .تمدّ يديها نحو الأرض

وكأنّها تبحث عن شيء ... ترى يديها ممسوخة، ترفع برأسها إلى سقف الزنزانة، تراه ملوّن بالسّواد والصدّمت، تشعر بالرّعب من ذلك السّواد القاتل، تحوّل عينيها بسرعة إلى الأرض وهي تحرّك رأسها في تهكّم لزمن ظلّلته الرّياح على مختلف الجهات وحاصرته الطّرقات. تختلسها ظلمة من الشّرود نحو تاريخ الواقعة .

آه ... تذكّرت، سأخبركم كيف حدث ذلك. حسمت أمري أن أتخلّ عنهم إلى الأبد. هكذا كانت الفكرة العبقرية. لا شيء وقف أمام قراري .... يا ليتكم رأيتموني كيف تصرّفت بحكمة وبدقّة بالغتين. أخذ الأمر مني عشر سنوات من التّعب من حكاياتهم ومغامراتهم وتألّقهم وسعادتهم. أصبحت أكره كلمة «سعادة» لأنها تأتي لمن لا يستهلّها وتركتني أنا منذ الأزل. لا إنها لم تتركني ... بل تغافلت عنّي عمدا .فقرّرت أن أقتلها هي أيضا .

انتظرت تلك الليلة. لم أنم ولم يكن النّوم مشكلة بالنّسبة لي. ساعتان في اليوم تكفيني. ألم أقل لكم أنني أختلف عنهم؟ هم ينامون اللّيل كلّه حتّى الصباح. أمّا أنا حتّى النّوم يكرهني وابتعد عنّي قبل أن أولد. فكرهته هو أيضا. تصوّروا عندما يشتاق إليّ يتسلّل إلى سريري مصطحبا معه أشباحا تخنقني وتجعلني أقرأ الكتب الثلاثة جميعها لكنها تزيد من أشباحي التي تتراقص من حولي وتدخل وتخرج طليقة في بيتي وترعبني

جميعهم بنصف ارتياب ونصف تهكّم، يتأرجحون بين الطّيش والصبيانية، يحدثون جلبة تنضج الأفكار وتنادي بالفضيلة، يتظاهرون الصدق وهم أكثر نفاقا وبلاهة، يتكلّمون عن الفكر ويدافعون عن الزور، يسلّمون بها سلفا، عن غريزة في قلوبهم ينخلونها، يفكّكونها، يشرّحونها. كلّهم قضاة العدل الماكر وشفعاء في الدّهاء. ما أبعدهم عن ذوق التّشجيع. يالهم من ممثلين بارعين! أسياد الغرائز وملوك الصّعلكة وأباطرة الأموال المسروقة. آذانهم صمّة وقلوبهم عمياء. نعم عمياء ....عمياااء.....

كانت تلك الكائنات نائمة في سعادة يغطّون. استغرق الأمر ساعة من الزّمن وأنا أحاول فتح الباب، كانت يداي ترتعشان. أستطيع أن أراهم مستلقين على أسرّتهم. تابعت خطواتي بحذر شديد حتّى لا أوقظهم. ما أروع تلك اللحظات وأنا أنظر إلى قدرهم القريب بين يديّ هاتين. ترفع يديها وتتطلّع إليهما. تعتريهما طاقة كونية يديرهما طوفان من الحقد، وقوّة وشعور بالانتصار بمجرّد التفكير بأنها هناك .كيف لهم هؤلاء الأغبياء ألا يفكّرون بأنني قد أقتحم يوما نومهم وأجعله أبديا. أذني سأخنق بكلتا يدي هدوءهم وسعادتهم وكتبهم ونومهم..كنت على و شك أن أتعثر في ذلك الظلام الدّامس. أحدهم أحسّ بصوت خطواتي فصرخ: من هناك؟ أمسكت صمتي وهدوئي لساعة .لم أحرّك ساكنا، وبينما هم يغطّون في نوم منكوش بلون الموت الذي يرتقبهم. كنت أتنفس بصعوبة ومسدّسي بيدي ينهكه الشوق لطلق رصاصة على كلّ واحد منهم. وسط ذلك الصمت الرّهيب انتابني قلق غريب وأنا أنظر إليهم. سأبقى وحيدة إن قتلتهم. سأصاب ببرد ويدثّرني الجليد وصقيع الوحدة الرهيب .

تبتسم بمرارة وهي تنظر إليهم. لكن، لكم تبدو هادئة كلّ الأشياء حين يغادرون. غيابهم سيبقى دوما يعيش بداخلي. وسأرحّب بالحياة طوعا في الجليد وفوق الجبال الشاهقة. لا أفند القتل ولكن سأكتفي بوضع قفّاز وأتخلّص منهم كلّهم... طلقة لكل واحد منهم، ويموتون في هدوء مع نومهم وكتبهم وليلهم. طق ..طق .... طق

كان صوت الطلقات المتتالية عبر زمن زنزانتها لا متناهيا، يمزّق طبلة أذنيها، يأكل أحشاءها، يزحف على روحها البائسة، يلبس أنفاس محنتها المتجمّدة. تضغط بكلّ ما تستطيع من قوّة بيديها على أذنيها لتحجب ذلك الصّدى اللامتناهي عن ذاكرة تتلو الشرود المذهل، عن أسئلة قاحلة بلا جواب، عن طوفان الحقد المنتشر في تلك الفسحة الذي يقتلها وجع أبدي. يمزّقها جحيم يتهاوى على وجع الخوف المحيط داخل تلك الجدران الملوّن بليل دائم والمتكئ على شروج متراخ يحاول الفرار من شبّاك الوحدة، فيسقط منهارا على أرضية مرتعشة بالجنون . لم تكن تلك الحكاية مصادفة وإنما قصّة حقيقية عن جوانب سلوكياتنا في الحياة والتي هي مجرّد انعكاس لأفعالنا .

# من خلف الجدار

رنّ الهاتف وسمع صوت من خلف الجدار، بعثر لديها كلّ الفصول، وكأن ذلك لم يحدث أوكأن ما حصل عبارة عن حلم عن وهم كان فقط في مخيلتها». ...

ألـف مبـروك عزيزتـي كريسـتين علـى الانجـاز الهائـل والرائع .سعيد بإتمامك هذا المشروع وكأنّ حملاً كان يثقل كتفيك رميتيه على الأرض. انا جاهز، للقائك ولأبارك لك انجـازك والسـاعات كلهـا لـك غـدا. أنتظـرك متـى شـئت. وسأحضر الكؤوس مليئة بربة العنب او الجعة الأطيب طعاما. مرحبا بك «

كلماته وقعت في أحضانها وكأن ما سمعته لم يكن إلا وهما. أمعقول بعد كل هذه السنين سنلتقي؟

في اللحظة التي فكرت باللقاء، انتابتها رعشة سرت في جسدها معبأة بذكريات الماضي، بتلك الابتسامات الدافئة التي سحقتها السخافات على الجدار المزدان بالصدى. ذهبت إليه لتلقاه لأول مرة بعد طول الغياب. لقاء اختلطت فيه المعاني وتمازجت واختلفت كبرق خاطف اخترق قلبها فكادت تقع على الأرض من شدة المفاجأة. ساد الصمت بينهما ليتكسر فجـأة بـبعض الجمـل البـاردة، الجامـدة الناعمـة، الغاضـبة الراضية. جمل متقطعة متقاطعة في ارتباك وحذر بين الحين والآخر. نظر إليها بابتسامة تنم عن فرحه بقدومها ويفاجؤها سؤاله:

-كيف حال ماريانا؟

نظرت إليه مشدوهة لثوان وأجابت بسرعة ومن غير تفكير.

-لم أرها منذ مدة .

صمت هنيهة ثم تغيّرت تقاسيم وجهه إلى جدّية بالغة وقال :

-إنّها صادقة .

تمنّت أن تصرخ في وجهه وتقول له، ماذا تعرف عن الصدق والصداقة التي ماتت بيننا لخمس سنوات .قتلها عزرائيل من معشر الإنس ومشيت أنت في جنازتها بصمت من غير أن تلتفت من ورائك لترى سيلاً من الدموع التي جرف معها الأمل ونثرته على متن عاصفة .أمعقول اختلطت الكلمات وتناطحت المفردات ببعضها فأصبحت تعطي اختلافا في المعنى؟ أربكها هدوءه، جعلها تبتلع ثرثرتها في كلمات اختنقت في حلقها .كانت اللحظات في قفص الاتهام والشمس تنزف من ثقب الظلام. تعثّر فرحها للقائه فصارت تعزفها قيثارة الذكريات التي مازالت تثقلها الجراح داخل قصيدة مطوية في رقاق من حلم ذرفته العين فرحا وحزنا على مفترق الطرق.

-نعم اختفت من حياتي لأنها لم تتحمّل وجود انجليكا في قائمة صديقاتي .

كانت تقول كلامها وتنظر إليه في امتعاض. ثم استرسلت من غير أن تنتظر منه تعليقا .كم من مرّة صرخت ماريانا في وجهي إلى متى سيظلّ طيف انجليكا يقفز على متن العواصف في هدوء مفتعل؟ طوفان ينتزع من الطبيعة جمالها .نعم، اختفت ماريانا كما اختفت انجليكا وماري صوفي وسوزانا. كم من مرّة سمعن صوتي مبحوحا من الأسى وكلهن طلبن مني أن أرمي بتلك الوردة الشائكة على الجانب الآخر من الشاطئ. فكان جوابي كيف لي أن أفعل ذلك وقد جمعني بها عقد من الزمن كانت فيه ضحكاتنا ترقص وأحزاننا تغتسل حين نلتقي، قد يصلح سلوكها مع الوقت. فأجبن كيف للمرء الذي شاب على الإساءة أن يهتدي .

كانت تحدّثه وتنظر في عينيه الجامدتين اللتان أثارتا غيظها .

-كفى تجذيفا عن أنجليكا. إنها ملاك من الوفاء. يكفي أنّها حذرتني يوما من الوقوع حين كنت أعشى .ودعت الله أن يرقد بعضهم إلى الأبد وأن يناموا في ليلة من غير دجى ليبقى الظلام متساقطا في بئر من غير قعر .

-نعم ، أولئك الذين تمنّتهم أن يرقدوا إلى الأبد واجهوا حقيقتها ورفضوا تلبية رغباتها .

لم يستحسن كلامها. ولكي يتجنّب الحديث عن ملاكه. قام إلى المطبخ مهرولا وأحضر لها كأسا من النبيذ.

-اشربي أنه نبيد من إيطاليا شرابك المفضل. هل تذكرين؟

سؤاله جعلها تذهب بفكرها إلى الماضي، إلى مسافة خمس سنوات من الغروب الحزين و البون البارد. هل مازال يذكر شعاع الشمس المضيء في تلك الرياح الموسمية حيث تتفتّح الزهور، أم أنّها كانت لحظة تتوقف فيه قافلة الأحلام ويذهب كلّ في طريقه؟ لقد تمزّق كل شيء ، وطوت السنين بُعيد الفراق من خلف الجدار ولم يبق إلا لهاث ، يطلّ من حين ومن ظلّ بعيد. أمعقول صدّق فحيح تلك الأفعى التي تنعي الحروب؟ هل أغمِضُ روحي حتّى يطلّ الصباح شهيا، أم أبكي حلم الربيع الذي يروم الهروب؟ كلماتها تبعثرت وسط ذلك المساء العقيم، انهارت دموعها ورفعت بكأس النبيذ في يدها على باقة آخر الذكريات، وجرعة خمر ترجف ممتعضة بين شفتيها :

- في صحة من ذخرت تسكّعاتها الرياح وأذابت حرارتها الدفء فلم يعد بيننا إلا الجفا» .

أومأ برأسه وهو يبتسم نافيا اتهامها له .

-يتهيّأ لك ذلك!!!...

ابتسامته زادت من حزنها وألمها وأرجعتها إلى وسط المسافة التي كانت تربط تلك السنوات من الغياب. لماذا التقينا في وسط ذلك الطريق الذي يرتمي على حافة المنفى الغريق؟ لماذا أراد لقائي بعد طول الغياب؟ وهاهو الآن يشدّ روحي كي يراني. بين كل تلك الورود الحاضرة في أناقة كانت لحظات ملتاعة بغابر حزن عتيق. كانت الرّيح تطرق نافذة الغرفة، فرأت السّماء تسقط متدحرجة من جسرها لتتهاوى على سقفها .حضورها معه عبارة عن حلم عابر يرتسم وجودا على أجنحة الفراشات. لماذا أتيت إليه رغم الظلمة التي مازالت متناثرة على انكسار دفين؟ هل استدعاني ليثأر مني بنظراته التي تشع كلها اتهاما ولوما. هل يثيره غضبي، هل يحب أن يرى آلام الفراق على سحنة وجهي؟ ماذا يريد مني ومن دعوتي إليه؟ كانت تحب نظرات عينيه التي كانت مليئة بالرغبة لتنفس براعم الزهور، ولسماع زقزقة الطيور، وصوت الناي على الشاطئ، وأغنية تغنى على ضفاف النهر. لم تعد الأشياء كما كانت. تغير كل شيء. غيرتها مسافات الغياب رغم أنّها كانت مملوءة بحضوره.

كان يجلس بجانبها، إلاّ أنها كانت تغرق في فراغ تلك الأريكة البطحاء ومن بينهما جدار منيع يطرق وجعا قديما وتهجر فيه المسافات أميالا من الزمان. نظرت إلى عينيه الكبيرتين. كانتا تشعان دفئا وغموضا، بينما هي كانت تبحث فيهما عن كنه المصطلحات وعن الكلمات والمترادفات فلم تجد فيهما إلاّ طلاسم لا تكاد تفهمها ومعان غير كلّ المعاني التي عبثت بها تلك العاصفة المحمّلة بالأشواك. تمنّت أن تظلّ جالسة على الأريكة بجانبه وأن تضع رأسها على زهر الربيع وتغزل خيوط غروب الشمس بأناملها وترسم بالفرشاة أحلام الشفق حيث البحر يعانق الرمال، وحيث قوس قزح يلوّن السّماء والكوخ مستلق في ارتخاء على سفح الجبل ينظر للبراري المترامية وهما في زورق يطفو تحت احمرار الغروب. إلا أنها نهضت كالبرق من مكانها وجلست على الأريكة المجاورة مبتعدة عنه وكأنها بذلك تلوم تلك الصدفة التي تسللت من الشقوق

ومن ثقوب الأبواب كالأعشى ، كبحر بعد العاصفة .انتهت تلك الأغنية، وأزيلت كلّ أشجار الغابة التي كانت تدفن الأسرار وانكشف ذلك القبر الذي كان يواري ترابه فوق تلك العنقاء.

خمار على عينيه أحجب عنها الرؤيا. كان مملوءا بالكلمات، أحيانا تشدو متمايلة كلهيب نار المدفأة، وأحيانا كصوت الرياح قبل هطول الرذاذ .امتدّت يدها المرتجفة إلى نبيذ ذلك السكون وارتشفته جرعات متتالية كما آلام جراحها، تبكي في صمت ذلك السكون الخافت ضوءه . مظلمة كحكايتها، كما الليل الدّامس المختنق بالضّباب. إلى متى سيظلّ ذلك الجدار يكبّل الماضي بصورة حنان زائف منقوش على الجدار؟ إلى متى سيظلّ الماضي مستحيلا يهتف في أعماق الروح ويرثي غبار الحاضر؟ أجهشت بالبكاء ووقفت من مكانها تهمّ بالرحيل وكلماتها متحشرجة تقول له في حين كانت ترنو بخطواتها نحو الباب. لماذا تتصنع الكلام؟ قلها ولا تتردّد .لقد ضاعت كلماتك في غياهب تلك العاصفة المشئومة واختفى معها ذلك الحلم الجميل .

# حين ينكسر خيط الشمس

مازال أبو تحسين يتنقل من قافلة إلى أخرى، ومن تراموای إلى آخر، يبحث عن حلمه الضائع الذي توارى وراء سحب الشواطئ البعيدة، وعن السلام الذي يتساقط رويدا ولا يمنحه إلا الألم. ترك شقته المتعبة بلا روح، وسكن مواصلات النقل ، وفي الليل يتسلل إلى محطة القطار الواسعة وينام في إحدى دهاليزها المختفية عن الأعين.

أصبح نحيفا جدا وشعره الكثيف المتجعد يغطي وجهه. يرتدي نفس المعطف الرمادي الذي رأيته به منذ أشهر. عيناه غائرتان، أقرأ فيهما الحزن وفقدان الأمل .يتذكر الجارين التي كانت شقته تتوسط شقتهما. الأول يوبخه لأنه يتضايق من التراتيل والآخر يقول له إن لم يعجبك صوت الهارد الروك ارحل من هنا ومن كل الوطن. أرى أوجاعه تتدلى على منكبيه وتتهاوى بداخل روحه حدّ الألم. متعب يتكئ على أيام تتراكض خاوية ، موبوءة، غريب عن الحياة، يستجمع أحداث تاريخ وجوديته .

كنت أراقبه يستعيد تلك الأصوات الغاضبة الناقمة في صمت، منجذبا إليه وكأن ثمة اتصال خفي يشدني ، أو كأني أقرأ صفحات هدوئه المفتعل، وحركات رأسه، وابتسامته الحزينة المستاءة والمستهزئة. أرحل من هنا أيها الأجنبي! أي وطن سأغادر وإلى أي وطن سألجأ . شعرت بغربة وأنا مازلت في رحم أمي وحين خرجت إلى الدنيا ، غادرت هي. فتركتني أداعب غيابها بالصراخ، عاري الجسد لا تغطيه إلا أسمال بالية من الجمرات المحرقة. أتأمله حبيس صرخة مكتومة في رعشة الأحداث العليلة، يتململ داخل روحه المسكونة بالحرية الشريدة والمطاردة مثله، غريب في ظلّ وحدته يبحث بعينيه الذابلتين عن وطن .

حين فتح عينيه لأول مرة علي الدنيا، لم ير إلا فساد الهواء في السماء. كيف له أن يتقدّم برفق إلى الأمام ، إلى عالم حالم ... أن يسبح في صمت ويكسّره بصوت تنفّسه، لم ير سوى وميضا من فوقه. يا إلهي هذا العالم الذي أتيت منه يزداد عمقا خلف الصخور المتجعّدة وإلى ظلامة البحر و زرقة عميقة و إلى سواد حالك .اغرق ، تجرفني تيارات غاضبة ، تؤرجحني بين وطني الأول والثاني. آه عليك يا وطني الأول، هل تذكر حين زرتك آخر مرة. جئتك طائرا عبر القارات، حاملا لك أفراحي، ووحشتي التي لا توصف. معي أصدقاء من الأمريكان والإنجليز. جئتك لأن الجامعة استدعتني حتى أتحدث عن الوطن وعن المهجر وعن البعد عنك وكيف الشعور ببعدك. في المطار مرافقا أصدقائي الذين سيشاركون معي نفس الموضوع. كنا في طابور طويل ختم شرطي الجمارك جواز سفر الأمريكان والانجليز، مبتسما إليهم مرحّبا، وحين وصل دوري ، رمقني بنظرة استهجان.

-هل كتبت عنوان الإقامة؟

أي عنوان إقامة، إنني مدعو من طرف الجامعة.

والله ما تدخل حتى تكتب وين نازل.

بحلقت عيني:

وين نازل؟

نعم، لابد من كتابة العنوان الذي ستقيم فيه؟.

وماذا عن هؤلاء الذين ختمت جوازات سفرهم بابتسامة وترحيب؟

ما تجي تورّيني شغلي! واش سمعتي واللاّ لاّ؟

تريد العنوان الذي سأنزل فيه.

المغرب...

قال بصوت يملأه الغيظ.

فين في المغرب؟

قلت لك المغرب.

باركا من التصعليك. كتب العنوان إلا بغيتي تدخل.

عنواني هو المغرب، كله وطني وبيتي وأهلي. هل فهمت؟

بعد شجار وتدخل شرطة آخرين، طلبوا مني أن أكتب العنوان. فأذعنت لطلبهم، وكتبت عنوان الفندق الذي نزلت فيه مع أصدقائي الأوروبيين. راضيا بنصيبي في الوطن وبنصيبهم فيه .

في وطني الثاني سكنت بجوار جيران من ثقافات وجنسيات وطوائف متعددة .هنا في منطقة هلميا التي فازت بلقب ( الجيتو) لتكتّل الأجانب فيها مع القليل من الجيران النرويجيين. ظننت أنني سأعيش جو وطني الأول لتواجد هذا الكم الهائل من العرب وغير العرب، يخففون عني الحنين إلي الوطن الأم الذي غادرته قسرا. جار ينظر إلي باستياء بحيث أنني في نظره أتشبه بالنرويجيين. وآخر يكرهني لأنني رفضت تسجيل اسمي في المسجد الذي يؤمّه .

-كيف لي أتسجّل عندكم وأنا مسجل في مسجد آخر؟

-لا يهم، يمكنك أن تتسجل عندنا أيضا .

-ولكن ... هذا تدليس!

-أعوذ بالله من التدليس، هدفنا يا سيدي الكريم تسجيل أكبر عدد ممكن من المسلمين، حتى نتلقى دعما أكبر لمساعدة مسلمين خارج الوطن .

-ولكن، أنت تسجل وإمام آخر يسجل وثالث يسجل، سيصبح عددنا في أوسلو ثلاثة أضعاف، وسيكتشف غشكم أمام السلطات.

قاطعني...

- يا أخي، ألا تريد المصلحة لأمتنا؟ مثلك هلاك على المسلمين أكثر من الكفار.

تركني وفمي مفتوح كسمكة و غادر و هو يزمجر ويسب بكلام غير مفهوم . وكيف لي أن أفهم لغته و هو القادم من إحدى دول «ال .. تان» جار آخر يكره فكري السياسي المعارض لفكره، أما جاري (كارل (يقول لي ابنه حين سألته أن يحفظ من الموسيقى العالية:

إن لم تعجبك الموسيقى ارحل عنا ، نحن لم نحضركم إلينا

-•أنا لم أتمرد إلاّ على اغتراب الشعوب في أوطانها ، على مكابدتهم نحو مستقبل لا مكان له، وتاريخ يتكرّر في التقسيم والفصل والانهزام. عن شعوب مكتظة إلا بالهتاف والمفجوعة على كسرة خبز. ... جئت إلى بلدك قسرا ... تركت طلابي بالجامعة وأبحاثي وهنا أبيع الخبز العربي بالأسود لأني لم أجد عملا بالأبيض .

-لن تجده ولو بكلّ الألوان. اذهبوا إلى أوطانكم وحرّروها.أنتم من أتيتم زاحفين إلينا ... ممتطين قوارب مصارعة أمواج المحيطات للوصول هنا، ارجعوا في قواربكم أو حتى على أقدامكم ، هذا ليس شأننا. خذوا تمردكم معكم إلى أوطانكم .

كان أبو تحسين يتصبب عرقا ويعضّ على شفته السفلى بقوة حتى سال الدم منها ، لم يشعر بشيء ، ..... مددت له ورق الكلينيكس، انتفض من مكانه وكأني أيقظته من كابوس، تراجع بجسمه إلى الوراء وكأنه بتلك الحركة يقول لي، لا شأن لك بي. علت على وجهه مسحة الحزن والكآبة، متواريا بحنين قلبه عن العالم كله، فاقدا الأمل من كلّ شيء .أرجعت ورقة الكلينيكس في صمت إلى جيبي، وأخفضت بصري في خجل عن تناطح شعوبنا، وتجزئة أوطاننا، في حين دول الغرب تتكتّل. عن شعوب تأكل بعضها، تمزق اشلاء بعضها بالسيوف وباسم السلام والحرية والله الأكبر وبلطجية ياجوج ويأجوج قادمة من إحدى جزر المرجان ، يقودها قرد يفتي بما يمليه عليه الشيطان. فانتشرت الصراصير وكثر البوم و عمّ السماء نعيق الغربان. وصدّرت إلينا قناصات ومسدسات سلمية حتى نكرم بها أبناء جلدتنا وبعدها نرسلهم بالبريد السريع حتى وهم غير ميتين، عبر خطوط الشهادة عابرين برك الدماء بسرعة البرق إلى جنة الغلمان والحريم. ... جواميس ...قطيع عقول متبلدة ... مستعبدة يعبث بها هواء قادم من أمم الصدى المخادعة. عقول لم تعتذر لعصابات ديموقراطية الاغتصاب والفتك والسلب وبوشية النهب والقتل، فأصبح البلد ينعي قبورا موجوعة بالأشلاء التي بترتها قنابل السرطان فعمّ الوطن الإنفلات ومن بقي حيّا يذرف أحزان الحسرة على سماء فاسدة من فوقه وأرض مخادعة من تحته ، فتغيّرت الأشياء وأصبح الضوء عاريا والشمس محرقة وخطوات الناس مبعثرة ووجوهها مشرّدة ، مثقلة بالهمّ والموت المرتقب. ألم يتوعّد الشيطان بحرب طائفية؟ وأرسل ثعبانا واحدا بقدرة ساحر متواجد في جبال أفغانستان، وسهول السودان، ومراعي دارفور، وجبال كوردستان العراق وإلى ليبيا حيث أنزل العلم الأخضر ورفع علم السمّ الزعاف .

رفعت رأسي فوجدت أبو تحسين يبتسم إليّ في حزن وكأنه سمع كل الحديث الذي دار في رأسي، وكأنه يشاركني همي. أمعقول يتذكّرني؟ مستحيل ..! حكم عليه زمن التآمر بالجنون فأصبح منتشرا كالغبار، مشتّتا كقمامة تلعب بها رياح قوية ، منظمة ، مدعومة ، جارفة، قاتلة، لم تترك في طريقها شيء سوى كلمات متقاطعة هنا وهناك ، كلها بحرف السين والعين ... سيوف وسكاكين.... وسلمية طراطير... عصابات مجرمة يترأسها يريور من قوم لوط ينفث سمومه من أرض سلاحف الصحراء كراكيز ودمى ، تنبعث من تحت سراويلهم المترهلة رائحة البول و وظيفتهم خدمة الشياطين. مازلت أهذي عن تاريخ متكرر غير مبال بأبي تحسين ولا بأحد في القطار ... فجأة سمع دوي انفجار ، رجّ القطار وكل من فيه، ذكرني بيوم النحس في وطني، يوم دخلت علينا ديمقراطية الألغام والمتفجرات .وقف الجميع مرعوبين خائفين، هناك من يصرخ، وهناك من يبكي وآخرون يريدون النزول من القطار .... نساء ورجال على جنبات الطريق يجرون على غير هدى ،هلعين والدماء تغطي وجوههم ولباسهم ... اصوات سيارات الإسعاف والشرطة متجهة ناحية الانفجار. يا إلهي !أمعقول ما أرى ؟ هل نحن في النرويج .... هل أنا في كابوس لوحدي ... أوسلو المدينة الجميلة الهادئة تتعرض للانفجار. هل وصل السّم الزعاف إلى هنا؟ اكتشفت أن القطار أصبح خاليا من الركاب والسائق. لم يبق أحد سوى أبو تحسين الذي كان ينظر إلي بابتسامته المجنونة ، جالسين وجها لوجه ، متسمرين في أماكننا، نصلي للرب في دواخلنا ألا يكون وراء هذا الكابوس المرعب أجنبي شعره أسود. ...وهذا ما كان وثبت. فإذا بمن يريد القتل والموت للغير لا يفرق بين الغير وبني وطنه. .ما زلت في حالة اكتئاب وحزن من هذا الفتى الأشقر الذي قتل بدم بارد ثمانين من بني شعبه الأشقر منه..

ويا للغرابة والدهشة يقرّ للمحققين أنّه يعرف عدد من قتلهم لكنه ليس نادما. فجأة صحا أبو تحسين من شروده وحزنه، وغابت ابتسامته الساخرة، وإذا به يبدو لي وكأنه محاضر في جامعة يقول: كنت أتمنى من قلبي الحزين وعقلي المجنون أن لا يحصل هذا الجنون والموت والقتل الذي حصل. ولكن ما دام أنّه حصل من أشقر غير بُنّي ولا أسود، هذا معناه أنّ القتلة لا دين ولا جنسية لهم..

# الاجنبي وشبح إبسن

كل يوم يرجع السيد هيلمر من المدينة إلى بيته مساء، يعود منهكا. يتصبب عرقا بمجرّد دخوله البيت، يفرغ شحنات ملله وخوفه المؤجل، يتصفح الجرائد اليومية. يحتسي القهوة منطويا على نفسه في وحدته ورحيله بالنظر إلى حيث لا ندري، في انعزال تامّ، لا يجيب على الهاتف إذا رنّ، ولا يتحرّك إذا مرّ أحد من أمامه. أرقبه يمشي على أطراف أصابعه باتجاه نافذة المطبخ الذي يطلّ على بيت ابسن، يقفز كالمرعوب إذا سمع صرخة أو ضحكة أو آهة قصيرة صادرة عن شخص في منتصف الليل العميق. هذا الليل الذي يؤكد له حقيقة وحدته، في بيت كبير ورثه عن جده، يقابل منزل هنريك ابسن بمدينة شيين، المشهورة عالميا حيث يأتيها الناس من كل فج عميق لرؤية هذا البيت الذي مازالت شمسه ساطعة، باقية كالأزل تشع نورا لا يعرف الزوال. أصبح متحفا ومركزا لكتاب الأدب الابسيني. تقام فيه أمسيات ثقافية ويجتمع الكتاب من النرويج والسويد والدانمارك، حيث يقضون ساعات سمر ثقافية. بعض الكتاب والفنانين يحظون بالمكوث في بيت ابسن ليكتبوا ابداعاتهم في بيت عملاق الأدب والمسرح. يكتبون من غير طقوس معينة، يكفي جو البيت يجعل المقيم وكأن ستائر غير مرئية تفصله عن محيطه وتحمله إلى فضاءات وعوالم أخرى يرسمها ويكتبها، يشكّلها في خياله وفكره وفي صور أحلامه .أناس يعرفهم ويعرف أسماءهم، أحلامهم، أسرارهم. يخرجون من كل زاوية في البيت ، يروون قصصا وأحداثا وتاريخا وما على المقيم هناك إلا أن يكون سريع الكتابة حتى يدون على الورق كلّ ما سمع منهم. إنه سر ذلك البيت الذي يساعد على حدوث البرق والرعد وطلوع الشمس.

والذي لا يعرفه الكثيرون، إلا أهل المنطقة ، هو شبح ابسن الذي يحوم في البيت ويكون حائلا بين المقيم وابداعه، يزعجه في كل لحظة يكون الكاتب غارقا في طقوس كتاباته، فيضطر المضيف أن يطلق رجلاه للريح ، تاركا البيت من غير سابق انذار، وفارا من غير رجعة .

بعدما تقاعد هيلمرعن العمل، أصبحت هوايته، الخروج بعض الشيء إلى المدينة يراقب الشمس وهي تنسدل بدفء على الأشجار والورود المتعانقة على جانبي شوارع المدينة، ويمد بصره على التلال الممتدة على ضواحيها، مستمتعا بأشعة الشمس الأولى التي تحضن تلك الانحدارات وسفوح الجبال التي تحيط بالمدينة. وفي العاشرة يكون في موعد مع فنجان قهوة وبعض المتقاعدين من أصدقائه، ثم يرجع إلى البيت يقرأ حصاد اليوم من الأخبار. بينما كان يتصفح جريدة «الأفتن بوستن» النرويجية، فإذا بعينيه تقعان على مقال صغير مكتوب عليه:« أجنبي سيسكن في بيت ابسن لمدة سنة. ماذا؟ أجنبي؟ وسيسكن في بيت من؟ هنريك ابسن؟ وسنة كاملة؟ هذا ما تبقى! احتلنا الأجانب في كل شبر في البلد، من شماله إلى جنوبه، في كل مكان تذهب يصادفك أصحاب الشعر الأسود منتشرون كالنمل، يتكاثرون كالفطر، ولا أحد يستطيع أخراجهم من هنا. والآن سيأتينا أجنبي إلى شيين ويسكن في بيت من؟ في بيت كاتبنا النرويجي العالمي، في هذا البيت المتحف المتميز. من يكون هذا الأجنبي وبأي حق يسكن في البيت؟ ولماذا؟ شعر بغيض وامتعاض، وضع الجريدة بعصبية على المائدة، أمسك بفنجان القهوة ارتشفه بيد مرتجفة وفي نفس الوقت ينظر إلى المطبخ المقابل لبيت ابسن وإلى غرف البيت التي كانت ستاراتها مسدولة. تذكر شبح ابسن الذي يحوم في البيت، فشعر بالارتياح وابتسامة ماكرة ارتسمت على شفتيه. غمغم لا إراديا، «هذا الأجنبي لن ينعم بالجلوس هناك، فشبح ابسن سيطرده من البيت شر طردة، بل من البلد كله». يا ليتهم يرسلون كل الأجانب إلى بيت ابسن، حتى يذوقوا طعم الجزع ويولوا من حيث أتوا!

كان يحتسي فنجان القهوة يرشفها رشفات سريعة تدل عن السعادة والفرح بقدوم الأجنبي إلى شيين الذي سيصبح «جاره» لليالي معدودة يملؤها الرعب. لابد أن أنام في النهار سويعات حتى أنعم بمراقبته في الليل وأسعد برؤيته يعيش الهلع. كم ستكون فرحتي حين أراه فارا من نافدة البيت عوض الباب . كان كل صباح يذهب إلى المقهى لرؤية أصدقائه الذين أخبرهم بالنبأ، وكل يوم يسألونه إن قدم ذلك« السندباد» إلى منزل ابسن. مر أسبوع وأسبوعان، ولم يشرف الأجنبي منزل هنريك ابسن حتى نسي هيلمر الموضوع .

أصبح الشارع الذي يفصل منزل هيلمر، ومنزل ابسن يكتظ كل يوم سبت بالكتاب والفنانين، يدخلون إلى البيت أفواجا، يتسامرون ويقرأون لبعضهم شعرا ونثرا من كتاباتهم، وبعدها تعزف الموسيقى ويسمع ضحكات الحاضرين. يا له من جو حالم ينعش القلب ويدخل السعادة إلى روحي الوحيدة. كل ابنائي رحلوا لحياتهم خارج الوطن. حتى زوجتي تركتني لتعيش مع أجنبي. تبا للحياة وللأجانب .يسرقون منا كلّ شيء حتى زوجاتنا. تمسّك بعكازته وذهب إلى منزل ابسن الذي كان بابه مفتوحا لكل محبي الأدب و سماع الشعر. كان يعج بفتيات و شباب مليئين بالحيوية وكتاب وكاتبات من مختلف الأعمار. أخذ مكانه وسط ذلك الحشد، يحوم بعينيه ينظر لوجوه جديدة ليست من المنطقة و في نفس الوقت يستمع لقصيدة أحد الشعراء ...انتهى الشاعر من قراءته فإذا بشاب أجنبي يقف أمام الحاضرين يتحدث عن ابداعات كاتبة ويقدمها للحاضرين.

هذا هو الأجنبي الذي قرأت عنه في الجريدة، إنه هو لا محالة. كان يتحدث اللغة النرويجية بطلاقة وفصاحة أذهلته، ورغم ذلك لم يستعطفه. يرى اعجاب الحاضرين به وبمداخلاته وبدماثته وخفة دمه. كان يتمتم كلمات تتلوى غيظا يحاول جهلا رؤية ما يطربه ، لكن عينيه أبت أن ترى إلا شخصية جذابة ولبقة في اللطف مع الحاضرين. لابد وأن له إرادة قوية وإلا ماكان متواجدا بين مثقفي أهل البلد. يدمدم في سرّه وقلبه يتّقظ غيظا ...

يظهر عنده اتساع الرؤيا جاد في تفكيره، يعبر من خلال ما سمع من قراءاته بحكمة واعتدال. يا إلهي من أين قدم هذا الأجنبي ...؟ يظهر جليا قوة خياله وخفة روحه البديهية في اسلوبه. أدهشه ذوقه الجيد في كتابة الأدب وذوقه في اختيار الموسيقى وتقديمها للجمهور. من أين جاء بهذا الذوق الرفيع؟ يحكّ لحيته البيضاء بازدراء، ويسترق النظر إليه من وراء الحشد. لكن متى قدم إلى منزل ابسن؟ إنه هنا منذ أسابيع، ولم أكن أعرف ذلك. كيف أنه مازال في البيت؟ لا أعتقد أنه مقيم هنا .لا ... لا ... مستحيل ! لو كان يسكن هنا، لو هرب من البيت في نفس الليلة أو ما بعدها. معقول! لكن ما قرأته عنه أنه سيسكن هنا لمدة سنة. إنه يسكن في البيت. ينظر إلى من حوله متوسّلا ... أين شبح ابسن؟ أمعقول أن الشبح خارج البلد؟ لا، لا أعتقد ذلك. مازال يحدّث نفسه حتى أقبل عليه ذلك الأجنبي وقال بلطف وابتسامة على شفتيه :

-سيدي الكل قد غادر المنزل. وأنا مضطر الآن أن أقفل الباب وأذهب للنوم .

غادر البيت يهرول وهو متكئ على عكازته وخيبته إلى مطبخ بيته ليراقبه من هناك.

لقد أطفأ الأجنبي النور في كل الغرف والمطبخ. حتما ذهب للنوم. جلس يحدّق بغيظ إلى النوافد المظلمة أكثر من ساعة . فإذا بكل أضواء البيت تشتعل دفعة واحدة. ليس هناك أي أحد في البيت إلا ذلك الاجنبي .بعد خمس دقائق، يراه يحوم من غرفة إلى أخرى ويطفأ الأنوار. ثم يختفي بين ذلك الظلام. يتخيله يأوي إلى فراشه وما أن يغلق عينيه حتى يشتعل الضوء مرة أخرى في كل البيت. ويستيقظ من جديد ويطفؤه. شعر بالخوف من ذلك المشهد الذي يعيشه لأول مرة. سمع عن شبح ابسن، لكنه لم يعايش مشهد تلك الأنوار التي تنطفئ وتشتعل لوحدها في ذلك الليل البهيم وتحت سماء موحشة ورياح عاتية مرعبة. كان الشارع الذي يفصل بيته ببيت ابسن ساكنا وموحشا، والأجنبي يحوم من غرفة إلى أخرى، يطفئ ضوء غرفة ويتجه ليطفئ نور الغرفة الأخرى ليجد الضوء اشتعل في الغرفة التي أطفأ نورها.

أصابه رعب المشهد، فشعر بقشعريرة سرت في كل أطراف جسده، يجس أعضاءه، يرجفه الصمت. ومما زاده رعبا ذلك الأجنبي يمشي بسرعة البرق غير مبال بين الغرف يطفئ مصباحا تلو الآخر وتشتعل بدورها واحدة تلو الأخرى. يراه يمشي ذهابا وإيابا ويحرك يديه وكأنه يتحدث إلى أحد. يرفع بيديه لكن هذه المرة حركات يديه عصبية وليس كما كانتا تتحركان مع إيقاع كلمات شعره وكتاباته الأدبية. فجأة يجلس الأجنبي على كرسي المطبخ فإذا به يرى باب المطبخ ينفتح، فينهض ليغلقه ويرجع إلى مكانه على الكرسي، ثم ينفتح الباب، ثم يذهب ليغلقه مرة ثانية .

التفت هيلمر من حوله والرعب يتملكه ينظر إلى أبواب غرف بيته. ثم ينظر ثانية من نافذته فإذا به يرى ذلك الأجنبي يترك نافذة المطبخ الخارجي مفتوحة .ربما أصابه الرعب، وأراد أن يكون على أهبة الهرب كما فعل الآخرون من قبله لما كانوا في البيت. حتما ذلك هو السبب في تركه باب النافدة مفتوحا. ظل الأجنبي مستيقظا طوال الليل، أما هو فرغم هوله مما رأى إلا أنه كان هادئ البال سعيدا بالشبح الحارس لمنزل ابسن. تسلل إلى فراشه سعيدا ولم يفتح عينيه إلا في العاشرة صباحا. هرول إلى أصدقائه وأخبرهم بالحدث السار والمدهش الذي وقع على الأجنبي في بيت ابسن .

نطق أحدهم:

الليلة أو غدا سيغادر الأجنبي البيت. نعم، يجب أن يغادر المكان. ذلك الشارع لسكان المنطقة وأهلها ولا نسمح لدخيل عليها .

قال آخر:

تسمح أو لا تسمح ذلك الاجنبي جاء بدعوة من المركز الثقافي النرويجي. ليس لك ولا لي قوة لإخراجه من هنا .

أجاب هيلمر بعصبية :

إن لم تكن لديك أنت قوة أو غيرك فهناك شبح ابسن أطال الله عمره. ضحك الجميع وأفترقوا .

رجع هيلمر إلى البيت، و هرول متسللا إلى سريره لكي يأخذ قسطا من الراحة حتى يتمكن من السهر في الليل ويحظى برؤية الأجنبي يهرول من النافذة نافذا بجلده. استيقظ بعد ساعتين. فإذا به يرى رجل وامرأة نرويجين في زيارة ذلك الأجنبي. كان يراهما من نافذة مطبخه، يجلسان معه في الغرفة المجاورة. يتسامرون ويضحكون والأجنبي أحضر لهما القهوة، وكأن شيئا لم يكن. فجأة يرى باب غرفة الاستقبال ينفتح وينغلق وتقف تلك المرأة مع صديقها مرعوبة، تلتفت في كل الجهات ثم تلتصق بجسد صديقها، بينما ذلك الأجنبي كان يحدق إليهما بهدوء مظهرا عدم الاكتراث وكأنه لم ير شيئا. التفتت إليه تلك المرأة:

-ألم تر ما رأيناه؟

بعد لحظات يجيب ببرودة أعصاب:

-نعم. إلا أنني أخاف ألا يصدقني أحد .

نطق صديقها :نحن النرويجيين نعرف أن البيت مسكون .

-كيف ولماذا لم يخبرني احد بذلك؟

-الآن عرفت.

وأخبراه كيف لزوجين كانا يعيشان هنا فترة من الزمن في البيت وفرا هاربين منه بمنتصف الليل .

غادرا الضيفان البيت، أما ألاجنبي فاختفى في وضح ذلك النهار. ذهب للنوم حتما بعد طول السهر من العراك مع شبح ابسن .

لابد الليلة أن يغادر البيت. أنا متأكد من أن تكون هذه الليلة آخر حلقة. كان مرتاحا مستعدا للسهر، فجاء الليل مدثرا بسواد حالك، مصحوبا بصمت رهيب، يبلّل عزلة روحه ووحدته المبتلية بسنين بالية، يقفز من سريره يمتطي عكازته المرتعشة ويخطو بسرعة متثاقله متعثرة إلى المطبخ. لم يعد أحد في الشارع. يحسّ أن أعضاءه يرجفها الصّمت. الساعة تشير إلى الواحدة صباحا ومنزل ابسن نائم فيه السكون. كان يرتقب جديد تلك الليلة أصبحت عيناه تلتصقان، وعربد يأسه على أشلائه المتهالكة. شعر بالضجر وعدم المفاجأة في ذلك الليل السرمدي الذي جعل يأسه أبديا، نهض بملل من مكانه ليذهب للنوم فإذا به يرى الأضواء تشتعل دفعة واحدة والأجنبي يقف كمارد مصارع، عيناه يتطاير منها الغضب، انفتح باب المطبخ وذهب ليغلقه فانغلق لوحده. شاهده يتتبع بعينيه شيئا، يهرول إلى المطبخ ويفتح نافذته ويخرج رأسه ثم ينظر إلى الشارع، ثم أدخل رأسه مرة ثانية، فإذا بنافدة الغرفة تنغلق لوحدها. رفع يديه الاثنتين أمامه وبدأ يخرج لسانه ويقوم بحركات بتقاسيم وجهه وكأنه يخيف أحدا هناك، ثم يجري وراء شيء غير مرئي، نحو غرفة الاستقبال وإلى غرفة النوم ثم إلى المطبخ مرة ثانية، ومازالت يداه مرتفعتين أمامه، ولسانه متدليا ، يمشي بخطوات مضحكة وكأنه الفهد الوردي في الرسوم المتحركة. فجأة يفتح باب النافدة ويخرج هواء قوي منها وكأنها عاصفة هوجاء، وأغلقت النافدة بقوة أحدثت صوتا يصمّ الأذن.

ماذا حصل؟ مرّ شهر على هذا الأجنبي في بيت ابسن، وهاهو ما زال يسكن هناك .كان في كل ليلة يجلس في مطبخه مراقبا مصارعة الشبح والأجنبي. لم يعد هناك شبح بعد تلك العاصفة التي انطلقت من النافدة .

لقد هزم الأجنبي شبح ابسن. .... مستحيل..

في الصباح استيقظ وقرر أن يذهب إلى ذلك الأجنبي، الذي علم سبب زيارته. رأى في عينيه خيبته، ورغم ذلك استقبله بابتسامته الآسرة.

-تفضل سيدي دعنا نشرب القهوة.

دخلا إلى المطبخ، أحضر له فنجانا من القهوة وجلس بجانبه. ثم ابتسم سائلاً إياه عن حاله.

فجأة عمّ الصمت بينهما. كان الأجنبي يحدق إليه، وكأنه يقول له بح بما في جعبتك، أتريد أن تسأل عن حالي أم عن حال الشبح. كان يحسه يقرأ أفكاره .

عجيب أمر ذلك الشاب الاجنبي. وجد نفسه يسأله لا إراديا عن حال الشبح.

-لم أعد أر شبح ابسن في البيت.

أجابه ببرودة أعصاب.

-رحل

رحل؟ أمعقول أن يترك ابسن البيت للغرباء ويرحل؟

ابتسم إليه بدفء وقال بهدوء:

ابسن لم يرحل إنه معنا في النرويج وفي وطني الذي قدمت منه وفي أوطان أخرى، في كل العالم إلا أن شبحه لم يعد هنا في البيت.

# شظايا البوح

لم تكن تعرف أن الأمر يتعلق بشيء آخر مختلفا تماما. تحاول أن تستجمع الأشياء، تستعيدها جملا وتفصيلا. عبارات من أعماق أحزان لطالما ارتعشت ألما. كلّها من حكايا نساء الهوادر، فحيح من لعنات أغلقت كلّ المسارات. لكنّ الضوء أصبح عاريا، فخطا القناع متبعثرا متعثرا في خطوات مفضوحة، مجنونة، وانكشف ذلك الوجه الذي بان عليه آثار امتداد تجاعيد روح محبوسة بالحزن العليل وبؤس ذاكرة تصحّرت وما تبقى من قذف غطاه رماد من جحيم. وقفت نورا أمام اللوحة تتأملها بشفقة، لوحة تساوي أقلّ من ثمن إطارها، بداخلها ذلك الوجه الغريب الذي يشبه الخفّاش، ملطخ بألوان التعاسة القانية. لكم نصحني أصدقائي المقربين أن أبقي الجدار عاريا. لم أكن أفهم نفسي، ما الذي يشدني لتلك الصورة رغم ألوانها الفاقعة التي تؤذي العين ولمحات وجهها الغريبة الغامضة. كم مرة تفاقمت المناقشة بيني وبينهم. أذكر مرة قال لي أينار، هذا الوجه الذي يبدو ملائكيا في الحقيقة مزيف يخفي بدواخله سلسلة يائسة من الأحقاد والضغينة. أما سيباستيان فكان أكثر أصدقائي اشمئزازا. بربك لم أفهم حتى الآن لماذا لم تقلعيها من الجدران، هل تعتقدين أن من بداخل الصورة مادونا ليزا دي أنتونديو؟ أو أن راسمها مونك أو فان غوغ أودوستويفسكي؟ إنها تحمل سلسلة علل يائسة على طول المدى اللامتناهي.

أنتم لا تفقهون شيئا

انظري إلى تلك الأنياب...

ليست أنيابا حقيقية...

كيف عرفت أنها ليست حقيقية.

قال مستهزئا:

أنسيت أنني طبيب أسنان. لكم انغرزت تلك الأنياب في لحوم البشر وأسالت دماءها...عمّن تتحدث الآن...؟

ضحك سيباستيان بملئ فيه:

عن الأنياب... لطالما حاول رسّامها أن يمنحها اسم كاسم الجوكندا إلا أنه ليس ببراعة دافنتشي. لم يستطع رسم لوحة خالدة يا نورا.

لكن....الصورة في حد ذاتها مكوناتها غريبة لكنها جميلة ألا توافقونني الرأي...؟

يبدو أنك متأثرة بالفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون، لكنها ليست الغرابة التي يتحدّث عنها. هو كان يحشو الحيوانات الميتة بالجليد لكي يعرف كم من الوقت تظل هذه الطيور بلا عفونة. لكن تعرفين ماذا حصل له؟

كفاك سخرية.

لقد مات من شدّة البرد.

قالت سوزان متجاهلة كلام سيباستيان:

انظري إلى اللوحة، تأمّليها جيّدا. هي مثل شجرة عجوز يابسة، أوراقها الصفراء تتساقط، فوضع الرّسام بقدرة براعته أوراقا خضراء بلاستيكية. إننا في زمن الزيف والترقيع. كنت أظنك يا نورا تحبين الفن الكلاسيكي. لكن لوحتك هذه بلاستيكية. لم تنفع ريشة الرسّام أن تنعش أغصانها، التي شاخت وتسوّست. انظري كم هي وحيدة وسط ذلك الإطار المترهّل. لا غابة تحيطها، ولا ورودا تؤنسها ولا حتى الفراشات. شجرة ضائعة في صحراء جافة، تبكي العطش وتبكي على العمر الذي مضى في حروب وأسلحة كاتمة للصوت.

لم يعجب سيباستيان تبريرات نورا أنّ أصل الفن هو الرسم وليس الموضوع المصوّر. ردّ عليها بامتعاض، أن القيمة الأساسية للوحة فنية هي في تصوير أشياء يمكننا فهمها والإعجاب بها. عدا ذلك الأفضل أن تتركي الجدران عارية. وحين لم يجد تجاوبا معها، غادر وهو يصفق الباب وراءه. مازالت تتذكر ذلك النقاش الذي مرّ عليه زمن طويل، إلا أنه جعلها مختلفة. ذكريات من عواصف وصقيع كانت تشلّ روحها وتنهكها في الخواء. تبحث عن فن لم يكن إلا إعصارا قاحلا يقبع في كلّ مكان من حولها ويضيق صدرها. أوقات عابرة مرّت تبحث فيها عن تلك الصفحات البيضاء في الحقيقة لم تكن إلا بلون السواد والغدر وظلام من نار. استفاقت نورا من غيبوبة الظلام....لن أترك نفسي أبدا أبهر بالبقع الملوّنة التي لا معنى لها. رفعت رأسها لا إراديا وهي تتحدث على هذا النحو حتى رنّ الهاتف. أمسكت سمّاعة التلفون. خرج منه صوت باللغة الإنجليزية وباللكنة الإيرلندية. انا سباستيان يا عزيزتي الغالية. سأحضر إلى تروندهايم لأعرض لوحاتي في مدينتكم. أتمنى لقاءك. مشتاق لك، اتضحت أمور تلك اللوحة... هل تذكرين...؟ نورا.... هل أنت معي.... لماذا أنت صامتة؟ أتمنى أن تنسي الماضي... كُشف الأمر.... مازلت أتذكر جنونك وأيام الجامعة يا رائعة... إلى اللقاء. وأقفل السماعة.

ضوء النهار ساطع بدون شمس، وصراخ بداخلها يحتج في صمت وسكون يتكسر في الفراغ. كنت أرقبها. يظهر من ملامحها أنها تكابد ما لا أعرفه وتؤثر عدم البوح به. غادرت شقتها الصغيرة تخطو ململمة خطواتها على تلك الرمال من الثلوج. يداها في جيبي معطفها الأسود، مرتفع الياقة. تمشي نحو مركز المدينة، عمارات، مداخل عريضة، محطات ترامبواي، مقاعد الحدائق العامة، صوت سيارة اسعاف، تمر بسرعة البرق، موكب سيارات دبلوماسية سوداء

من الطرف الآخر من الشارع سيارة إطفاء، شباب بزي احمر وابيض كلباس شرطي الحراسة بالقصر الملكي في لندن، يمشون وسط الجادة باصطفاف متواز كفيلق عسكري، يعزفون على آلة سكسوفون والترامديت وعلى مقدمتهم فتاة تدق الطبل. مشت مسافة من غير أن تشعر بالطريق فجأة توقفت أمام شقة جوناثان، علقت نظرها على الشباك، ربما يستثير عندها رؤية كامنة كم توقفت أمامها، أي شيء توقعته هناك؟ يا إلهي مالذي جاء بي إلى هنا؟ وحتى لا يراها من شباك المطبخ، هرولت إلى المركز الثقافي الذي لم يكن يبعد عن شقته إلا بأمتار قليلة. دخلت تلهث إلى الداخل، وكتاب يرتجف بين يديها. توقفت عند لوحة، تتوحّد، تشرد داخل أفكارها. تلتفت إلى مزهرية على شكل هلال فضي. توقفت طويلا تتأملها، تستعيد الماضي رغم مسافات الزمان والمكان. يفاجؤها جونثان الذي أمسك بخصرها وهمس في أذنها، سنحتفل سويا بعد زيارة معرض صديقنا سيباستيان. أنا من استدعاه من إيرلندا. تتملص من يديه التي كانت ما تزالان تحتضناها من الخلف. تلتفت ناحيته، مجرد إيماءة سريعة، لا خصوصية لها، غير أن صمتا لطيفا لثم ابتسامتها.

لم أركِ منذ مدة.

منهمكة في معهد الفنون أهيىء لمعرض جديد _

غدا ستأتين لنحتفل أنا وأنت وسيباستيان. سأتصل بك وأخبرك بالتفاصيل أومأت إيماءة سريعة لكم أسرعت وأبطأت نبضها. أما هو فغادر المكان وتركها للذاكرة، حيث أيام الجامعة، الثلاثة نفس التخصص. ذكرى تلك السنوات حرّكت لحنا قديما عندها، أيقظ سبات الشجن خاصة عندما استدعته بمخيّلتها. لم يعد السفر إليه آمنا..

في اليوم الثاني هيأت نفسها، وذهبت للحفل الموعود بفندق الساس، بصحبة رفيق ليس له في الفن التشكيلي، إلا أنه يعشق لوحات سيباستيان، وقد اشترى إحدى لوحاته. جلسا في اللوبي ينتظران قدومه، فإذا بها تتفاجأ بقدوم جوناثان نحوها، محيِّيا تحية خاصة، هي تفهمها، كل همسة، ونظرة، وابتسامة. سلّم على «رفيقها» بأدب أنيق، ثم قال:

سيباستيان الآن مشغول مع صحافية، بمجرد ما ينتهي. سنجلس سويا

انسحب مغادرا بهدوء مفتعل. كان يمشي بخطوات بطيئة قرب مكتب الاستعلامات وينظر إليها. نظراته كانت واضحة وكانت هي تتصنع الحديث والتجاوب مع «رفيقها»إلا أنها كانت تنظر إليه بكل جوارحها، تراه طوال الوقت من غير أن تنظر إليه، متصنعة الاستماع لرفيقها الذي كان منسجما في الحديث إليها عن زيارته إلى جزيرة كريت. أما هي فحملتها الذاكرة إلى جامعة باريس للفنون التشكيلية، حيث كانت مع جوناثان وسيباستيان. أصدقاء مجانين، رحلاتهم التي لا تنتهي بحثا عن الأمثل للتعبير. إلى أن دخلت على حياتهم زيلدا صاحبة المعطف الرمادي والأنف المعقوف. شابة يتملكها الجشع والحب، يتلبسها قرنا شيطان ورداء قديس. تؤمن بأضداد القيم الأخلاقية، وأقحمت هذه الأضداد في علاقة نورا وجوناثان. إلا أن فشل ذلك الكذب الذي كان يخرج من فمها، لم ينطق إلا بحقيقتها من غير أن تدري. ظلّ ذلك الماضي يتبعها أينما حلّت وارتحلت في باريس وهنا في تروندهايم. نستها أخيرا خمس سنوات من الراحة الهادئة. لماذا أذكرها الآن؟ كيف لي أن أنسى ذلك الحدث الذي أيقظه مجيئ سيباستيان إلى النرويج. وأخيرا أقبل سيباستيان، وعانقها عناقا حارا، أما جوناثان فكان يجلس مقابل الصحافية من جريدة دي لابيدا. و«رفيقها» الذي لم تفهم لماذا أتت بصحبته كان يجلس بجانبها.

كان سيباستيان يتكلم بصوت عال ويضحك متذكرا أيام الجنون وينظر إلى جوناثان الذي لم يرق له صحبة ذلك الشاب لنورا. فلبسه الصمت، وكان ينظر من تحت نظاراته مختلسا النظر إليها. كانت تحدق في إحدى يديه وتطيل النظر إليها...ثم توجه كلامها لسيباستيان الذي انطلق يشارك في الحديث مع ذلك الرفيق. وتعالت كؤوس الشامبانيا وتهاليل الفرح والتبريك لنجاح المعرض.

عزيزتي نورا، بعت كل اللوحات إلا واحدة فهي لك. هل تريدين رؤيتها؟ -

فجأة تدخل تلك اللوحة ويفاجؤها حضورها المباغت. لم يكن يهمّها في تلك اللحظة من وراء تلك المفاجأة الرمادية اللون، الباهتة الملامح والروح. كانت لا تزال تحت أثر الدهشة. لم تكن تفهم لم تلك الصورة بالذات وهو يعرف أن شظايا ذكرياتها لم تكن إلا نارا أحرقتها حتى النخاع. لماذا يفاجؤني بها وألمها مازال يؤلم روحي. يكفي أنه سماها شظايا البوح، ورسمها جسدا بلا روح، بلا رأس وبلا يدين، فقط جسم ورجلين. لم تستطع نورا أن تردّ الهدية، فذلك تصرّف في نظرها غير لائق. كما أنها لم تأخذ اللوحة إلى بيتها حتى لا تتحوّل جنتها إلى جحيم. حملتها إلى المرسم هناك حيث لوحاتها التي ستشارك بها في معرض قريب. وضعت اللوحة محلّ الأخرى التي لم تكملها. جلست على الأريكة تتأملها في صمت، مسترجعة الماضي. كيف يا سباستيان رسمتها جسدا بلا رأس، هي التي استطاعت أن تغيّر لون البحار من الزرقة إلى لون الظلام واقلعت الأغصان من جذور الأرض. كانت نورا تخلط الألوان بالفرشاة وتنظر إلى ذلك الجسم الرشيق الجميل. لابد من وضع وجه جميل يليق بكامل الجسد. سأرسم لها وجها به معنى كما رسم دانتي غابريل «الليدي ليليث» بهيئة حديثة سأضع فيها معنى وأجعل منها أسطورة. سأجعل لها وجها يشع طيبة ووفاء وأزرع فيها روحا تفيض جمالا.

في العاشرة صباحا، دخل نور الشمس من سقف المرسم الزجاجي الذي بأعلى طابق البناية، جعل نورا تفتح عينيها بصعوبة. كانت مستلقية على الأريكة وقنينة النبيذ والسجائر مبعثرة على الأرض. نهضت مسرعة نحو اللوحة لترى شكل اللوحة النهائي. فإذا بها تجحظ عيناها لهول ما رأت. كل جهدها وسهرها ذهب سدى. أصيبت بإحباط شديد. يا إلهي ماذا أرى؟ لم تفلح ريشتي تغيير شيء على الإطلاق. كانت الصورة تبدو على هيئة «كوشيساكي» وجهها ممزّق من الأذن إلى الأذن، يحجبه خمار عن الأعين، وكل الجسد يهوي على هيئة ملاك شيطان من عليائه.

# إلى أين المفر

في وسط جو عاصفي من الثلوج بشوارع اسلو، كان الناس منتشرين يتبضعون لمناسبة عيد الميلاد. ككل سنة يخرجون من محل تجاري ليدخلون إلى آخر. الكل ملفوف داخل معطف من فرو أو صوف أو قطن، يحجب رأسه بقبعة تدفئه من لسعات البرد القارصة. كان عادل من ضمن أولئك الحشد من النرويجيين والأجانب الذي لا تفوته مناسبة ذلك اليوم من غير أن يشتري الهدايا وشجرة العيد. أصبح عيد الميلاد جزء من حياة الأجانب، رغم أنه كل يعيّد بطريقته التي تختلف عن عادات أهل البلد. هناك من يشتري شجرة العيد البلاستيكية وهناك من يحتفل فقط بتبادل الهدايا مع الأصدقاء النرويجيين، من غير أن يحتفل بكل طقوس العيد في بيته، من تزيين البيت بالستائر والورود الحمراء وصنع أنواع الحلوى وطبخ الديك الرومي أو ضلع الخنزير الذي يقدم مع مربى تتبار..

في طريقه مهرولا إلى البيت أمتطى القافلة وأخذ مكانه منشغلا بوضع الأكياس بحذر بين رجليه حتى لا تعيق من يجلس بجانبه. ما أن رفع رأسه حتى وقعت عيناه على أبو تحسين المعتوه الذي كان يجلس أمامه. نحيل ذو عينين سوداوين صغيرتين غائرتين، وسط وجهه الشاحب النحيل، وشعره الأسود متدل على شكل ظفائر كالراستامان. مغبر بائس، لحيته الكثيفة والمبللة بالثلج كانت تغطي نصف وجهه والنصف الآخر يظهر عليه تجاعيد رسمتها أيام رمادية مريضة مصابة بالنهب والأوبئة. كان عادل مندهشا كيف تغير هذا الرجل الوسيم إلى مختنق في الفراغ، غارقا في انكسار ووحدة وتاريخ أعزل؟ ابتسم له، لكن أبو تحسين اكتفى فقط بالنظر إليه وهو يحرك رأسه وكأنه فنان هندي يعزف على آلة رودارافينا. سلمّ عليه، لم يردّ التحية ظل يتطلّع إليه ويحرك برأسه ويجول بعينيه على كل جسمه إلى أن وقعت عيناه على الأكياس. ابتسم ثمّ حوّل ببصره إلى النافذة وكأنه يبحث عن شيء.

أسند عادل ظهره إلى الكرسي في حزن يتذكر يوم كان يسكن بجواره، يستمتع بحديثه عن طلابه في الجامعة و عن مادة الفيزياء التي كان يدرّسها في ذلك الوطن الذي قدم منه قسرا، بعدما تغير كل شيء هناك. حتى السماء أصبحت دائمة القلق، والبحر واليابس في زنزانة أشبه بقفص الفئران. والناس تطارد خطواتها في ظل من انكسار، والخوف من الآتي يرتجف في ألم. بلاد أصابتها لعنة من عواصف لا أحد يعلم من أين تأتي هل من الشرق أو الغرب. كنائس ومساجد ومعابد تنزف في احتضار والموت سحابة من فوق رؤوس الناس مستلقية على جهلهم الأبدي. يمشون مهرولين بين الشوارع كمن يلاحقهم أحد، يتعثرون يتبعثرون في الفراغ. عقولهم مضطربة يمتزج فيها اشمئزاز بافتتان، و بين تطرف ويسار ويمين غرق الوطن في بحر من دموع وبرك من دماء. اغرورقت عينا عادل أمّا أبو تحسين فكان ينظر إليه بابتسامة ساخرة. هل كان يتذكر أيام كان يسكن بجواره، و كيف كان يستقبله بحرارة و كرم ذلك الوطن الذي قدم منه، ويهرول ليحضر له الشاي ثم يبدأ في الحديث عن الوطن متألما لأحداثها التي لا تزيد إلا تدهورا وهو يزداد تدمرا ونفورا.

كان ينظر إليه في حزن بينما هو يبتسم. تذكر حين كان يحدثه وينظر إليه بنفس تلك الابتسامة حين كان يزوره في شقته الأنيقة والمرتبة بعناية. وفوق التلفاز صورة لفتاة تحمل دبّا على ذراعيها. اشترى تلك اللوحة في إحدى معارض اسلو وما شدّه لتلك الصورة هو اسمها «السلام»، كان كل صباح ينظر إلى الصورة بابتسامة ساخرة: «متى يا فتاتي سيأتي ذلك اليوم الذي تحملين فيه دبا من غير أن يفترسك. » و في كل مساء كان يجلس على أريكته المريحة ،يرتشف فنجان القهوة التركية و يتصفح الجرائد العربية التي كان يستلمها مرة كل اسبوع

وحين ينتهي من قراءتها ينتظر سماع الأخبار من قناة الأناركو النرويجية، يلتفت بتثاقل إلى النافدة ، ظلام قاتم صقيع يشل الروح، وأشجار ترجف أوراقها في صمت ذلك السكون. يوشح ببصره بسرعة عن رؤية المكان وينظر إلى التلفاز منتظرا الأخبار وكأنه بذلك يريد الهروب من ذلك المنظر البارد الذي يبعث في الجسم قشعريرة ، ليجد نفسه خارج المكان، وداخل انفجارات هنا وهناك لم تترك مسجدا ولا معبدا ولا كنيسة. ومظاهرات تنتشر كالفطر في مختلف العواصم وشباب تعتصم بسبب غلاء الخبز في حين أوطانهم تعقد صفقات تجارية لشراء أسلحة بملايين الدولارات. امتعض أبو تحسين، وبدأ يسب ويلعن الساعة التي وضعته أمه في غابة الإنسان. أقفل التلفاز وفتح المسجلة ليستمع إلى فيروز، أغمض عينيه ورحل بخياله إلى حيث الشمس والربيع وحديث الأطفال يلعبون كالفراشات يتنقلون في مرح والنساء تقطف الزيتون وتغني الزجل والرجال بعقالهم يشربون القهوة ويدخنون الشيشة، وحديث الحمام وكلمات فيروز التي تغني يا طير .... ذلك الطير الذي إن كان سيطير على أطراف الدنيا ، أن يخبر الأحباء عن حاله، أن يسألهم عن من له أنيس مجروح بالهوى، وعن وجع لا يستطيع البوح به، عن طائر أخذ معه لون الشجر ولم يبق إلا الانتظار والضجر، ينظر بعين الشمس على درب الحجر، ملبّكا وأيدي الفراق تهدّه لأيام تشبه بعضها، يتوسّل للطير إن كان سيذهب عند الاحباء أن يأخذه لهم ولو دقيقة ويرجع به إلى حيث يقيم.

أختلط صوت فيروز الحالم وكلماتها المؤثرة بإيقاع الهارد الروك الصاخب آتيا من شقة جاره كارل ، وصوت أناشيد من بيت كريم. إيقاعات تتزايد ارتفاعها آتية من يمين ويسار الجدران وكأنّ تلك الإيقاعات الصوتية تتحدى بعضها في الصخب. وضع أبو تحسين القطن في أذنيه، ومازال الصراخ عاتيا في فضاء المكان، أزال القطن ووضع سبابتي يديه، ليحجز تلك الأصوات التي كانت تجتاح طبلة أذنيه ولكن بدون جدوى. وقف كالملسوع من مكانه مسرعا يطرق شقة كريم. فتح الابن الأكبر الباب ، فوق رأسه طاقية بيضاء من الصوف ولحيته كثيفة متجعدة.

السلام عليكم يا ابني، هل يمكن أن تخفض من صوت النشيد؟

زمجر الشاب مخاطبا بنظرة تنم عن اشمئزاز:

ألم يعجبك صوت هذا النشيد؟ ماذا عن تلك الأصوات التي تأتي من تلك الشقة، راضيا عنها، أليس كذلك؟ يبدو أنك مندمجا حتى النخاع.

وأغلق الباب.

أما أبو تحسين فوجد نفسه وراء الباب يسبّ بكل لغات العالم، ولم يبق شيئا إلا ولفظه عن ذلك الكابوس القائم. استدار ساخطا يطرق شقة كارل، فتح الابن الباب، كان يبلغ من العمر سبعة عشر عاما، مليئ البدن، كل شيء كان يرتديه اسود اللون، وشعره طويل مسدول على كتفيه الشديدة البياض ولون أظافره الطويلة مصبوغة بنفس اللون وفي منخاره حلقة من المعدن الأبيض كالثور.

سأل مقطبا عينيه:

ما الأمر؟

هل يمكنك يا ابني أن تخفض من صوت الموسيقى؟

ضحك:

وماذا عن أصوات تلك الأناشيد التي تخرج من ذلك الباب كالنواح؟ أو أن ذلك الصرير يعجبك؟

هل يمكنني أن أتحدث إلى والدك؟

ليس بالبيت. اسمع لقد تعبنا منكم ومن جيرتكم، إن لم يعجبك المكان فارحل من هنا.

وأغلق الباب.

دخل أبو تحسين مطأطأ الرأس إلى شقته، ينظر إلى روحه المعلقة في الضياع، بحثا عن دفء عن سلام، عن سكون. يبكي غضبه البائس وظله الحزين الذي يطفو في وهن بتلك الشقة الصغيرة، ووحشة تنهشه في ذلك الصخب الموحش الذي يبعث رائحة منقوعة بعزلة من عتمة جثمت على جسده الثقيل فهوى على أريكة الذاكرة حيث كل الآمال والأحلام تناثرت بائسة على خيبة انتظارها العاجز. سئمت الرحيل والترحال بين كرّ وفرّ وهروب من حرب تمزّق الأجساد لأعيش حربا تمزق الروح! كيف لي وفي كل مكان أغدوا أجد أمامي كارل وكريم؟ يتبعاني كظلي أينما حليت وارتحلت. شخصين مستحيلين غريبين الأطوار حولا البناية إلى جحيم مستديم. والعجيب الغريب أنهما يشبهان بعضهما في الشكل وكأنهما توأم. يشتركان تقاسيم الوجه، نفس القامة وطول اللسان. إلا أن كارل أشقرا وكريم حنطي اللون. فلسفتهما في الكره واحدة. كل له أتباعه وتستمر الحكاية حرب داحس والغبراء بين هذين المخلوقين في صورة انسان في جميع الأحياء والمدن وفي الشرق والغرب وحتى في حي هلمليا حيث أسكن. ذاك يتشدّق عن الإندماجية والآخر يحرّض عن الإنتمائية ونحن بين فلسفتهما تائهين. فريق يلتزم الصمت وفريق يحرسه الجبن، وتجري من فوقنا الأيام لتتلوها أخبار على مدار الساعة في التلفاز. جيش يتربص ... مجموعة تهدد ... كارل يقذف قنابل من كلام وكريم يرد عليه برشاش من تهديد، وجاء أخيرا السيد فرج يخبر الجميع بأن السلام لا يمكن أن يعم زمانا ولا مكان، لا في الشرق ولا الغرب إلا بترحيل كريم ليحيا السلام، وأنه مستعد لأخذه بسيارته الخاصة إن لم توجد سيارة أجرة لأخذه إلى المطار.

اشتعلت الأحياء نارا والمدن بركانا وزلزلت أماكن في دول عن حكاية كارل وكريم وتكرر سؤال في الإعلام «هل نعتذر عن حرية التعبير؟» أما أبوتحسين المعتوه، تلك الليلة سيخرج من شقته، حاملا حقيبته من بكاء وصراخ مكتوم يحترق في جوف روحه بحثا عن الجوهر المفقود متسكعا في الشوارع وبين الأزقة ، ومن قافلة إلى أخرى يجوب البلاد طولا وعرضا على أنقاض عمره يبحث عن صورته المعلّقة عن السلام. وأحيانا أخرى باستهجان وشفقة من مكر الحياة له في طرقات قادته إلى المنافي والعتمة التي رافقته متهاوية عليه من الأعالي.

# قوس قزح

وأنا أمشي في ربيع من حولي، رأيت طائرالسنونو محلّقا وحده في صفاء السماء، يعانق الشمس ويرفرف فوق البحر تحت مطر تسرّبت قطراته إلى أعماق روحه ، وطرقت باب قلبه ناشرة ألوانا نابضة بالحياة. كان النسيم يغني شذى الورود، والفراشات بألوانها اللامتناهية تبتسم لابتسامة ذلك المنظر الحالم. فجأة سَمع فحيح ثعبان يزحف على الأعشاب بسرعة البرق في تلك المسافات الخضراء ، كيف ومن أين تسلّل ...؟ ظل السؤال معلقا، إلا أنه يوحي بأنه قدم من اللامكان أو ربما كان له مكان فاقتلع منه ليتطفل على البراري والسهول والجبال والوديان والشلالات التي كانت تغني كلها اخضرارِ الربيع.

دخل الثعبان البحر فهاجت أمواجه وعلت وتغيّر لون السماء، فصار أحمر داكنا والغيوم رمادية، تميل إلى السواد والأمطار تحوّلت إلى شهب من نار. كلّ شيء لفّه الحطام. مازلت أراه يرفرف عاليا بعيدا عن إعصار الوحل والشوارع المقفرة، بعيدا عن الصقيع وظلمة الليل حيث طيور مثله ، تشدّ له أزره، وحيث النجوم التي تضيء له الفضاء ، وحيث الشمس حين تبسط شعاع الحب، والليل حين يغطي أخطاء الآخرين.

التفسير صعب والإيضاح مستحيل. ثعبان غيّر المكان وقلَب الطبيعة، يعزف من خلفه الجراح ويزحف على عقده السالفة أيام كان في الجنة عدوا لآدم و حواء. أراه يتمسكن وهو يزحف ، يلسع ... يبثّ السّم، يستطلع .... يتأمل ... يشتاق ...يندم ... ولسانه بقوة ألف لسان. يجتر طريدة تلو الأخرى على إيقاع أزلي، فاختفت الورود والرياحين من العالم

كما انطفأت النجوم في عتمة الظلامة و غدا الكون مقبرة تسكنه الأشباح ويعلو فضاءه النواح ، وتحت التراب أنين لصرخات محبوسة موصودة خلف الأبواب. كلمات عالقة في الحلق، ترفض أن تلحق الإهانة بأحد، كلمات تستتر عند الإشفاق، تسارع الهرب من نهش بؤساء يخترعون المآسي عبثا. يا ليتهم يزيدون في مسرّتهم ليفقدوا معرفتهم بالإساءة إلى سواهم وباختراع ما يسبّب الآلام.

ساعاتهم محكومة بالزوال ، ينهشها البؤس وتلبستها الفجيعة، فلم يبق في حوزتهم سوى التسلّق على ذكر ياتهم السحيقة لسلوك التهب وطفح كالقروح .... ما عاد لهم مرفأ يرسون عليه ولا نشوة يمضون إليها. خراب حلّ على وجوههم وأوصدت الفراشات الصغيرة عليهم الأبواب وهمس الطائر من فوق :

«هل تذكرين تلك اللعبة المستترة تحت قهقهتك المكتومة وسط ذلك الشارع؟ مازلت أتذكرها كلما مررت من هناك، حيث وقفت وأمرتني أن أجرجر كلماتي وأرمي بها في وجه ذلك المكان؟ سمعتك كالأبله أجري وبين يداي عاصفة تحرق بنارها وأشواكها..... لم أكن أعرف أن مكالمة الجوال أسرع من العاصفة تستبق ألسنة المتربصين، ليستقبلني المكان وفي يديه المرتجفتان خربشات على ورق....!» تنتابني القشعريرة كلّما أقف في ذلك المكان أيتها الساعة المحكومة بالزوال. خذي معك أشواكك التي تدميني ولا تنسي ذكرياتك السحيقة إرويها كما شئت بعيدا عني، وتسلّقي أسوارا بعيدا عن ظهري وأعيدي ساعاتك التي ضاعت وأيامك التي اختطفت ولا تجثي على صدري .. يكفيني ما ألقمتني من حزن بقدر الكون. ألا تعلمين أنه من الصعب أن أعيش مع أناس مادمت أستصعب السكوت إن ظلمت.»

غروب الشمس الذي انقضى منذ فترة، جعل الأشجار ترتجف، وطيور الأمل تطير من الأغصان بعيدا، وتختفي رائحة العشب الأخضر من وراء الغيوم ولم يبق سوى رائحة الخيانة تلوّث الهواء.

حلّق الطائر في رعب من هول المكان فوق البحر المتلاطم أمواجه، حاملاً معه قصته التي بقيت في قلبه مدفونة، لا أحد في العالم فهمَ جوهر ما يريد ايصاله. حلّق بعيدا رافضا أن ينظر إلى الأسفل، كما أنه لا يرى أحدا فوقه.

كنت أراه في مرآة القمر يبتسم لي رغم الظلمة وليلها الغريب، ورغم الصحاري وحرارة اللهيب، ورغم السراب المحمّل بالضغينة والشرور. من تلك الأعالي أراه نجما يشير إلى فجر جديد ، نجوم من حوله لاتعد ولا تحصى تزين السماء، وهو يطير في ذلك الكون ، رغم خيبات الأمل والغابة المسكونة بالأشباح، ورغم الصمت المكتظ بالهمس الذي يقتحم الأسوار . أراه يعتق عنانه ويجعل الريح حصانه ويحلّ بعيداً ... عاليا، فيختفي اللهيب فجأة ويشع نور لتتيح للقافلة السير بنفس الأمل رغم طول السفر وظلمة الليل.

عاصفة هوجاء القيت في جوف اليمّ عمدا وأقلعت الشمس من مكانها فأصبح المكان عورة مفضوحة، مستسلما دون ثورة ، مأخوذا بالضعف والوهن، عاجزا عن التخلّص من أي شيء، عاجزا عن الحسم في أيّ شيء أو ردّ أيّ شيء. أصبحت جارحة مزعجة مثل حدّ السيف القاطع.

تارة هادئة وتارة متجهّمة، ممتدّة ثقيلة الإقامة وغالبا مدركة لكلّ المعاني. هجوعها منذ الأزل لم يكن إلاّ لتأمّل الأشياء التي لا يمكن لأي مخلوق إدراكها. تحدّد الخطوط والثّنايا وتنقل الأسرار والفتنة وتحاكي ما لا يحاكى، فتصيبك الأشياء في العمق، والذكرى تغذو جرحا متقيّحا.

استسلم الطائر دون عناء فوقع على تلك المياه العملاقة، يستحمّ ويسبح. وجد مياه اليمّ رغم هيجانه صافية لامعة. لم يهلك الطائر .... لقد كانت المياه نقية من حوله كما يشتهيها. والأمواج تهتف له بأمل ناصع ليعود كما كان.

هل هو لعبة حظ أم قدر، ذلك الذي يفرق الناس ويجمعهم مرة أخرى، ليقولون شيئا ويفكرون في أشياء أخرى. سمعته يهمس لي من ذلك الأفق:« إذني أحلّق بعيدا، كلّ ما ورائي تركته خلفي وها أنا أمضي معانقا بجناحيّ كل ما هو أمامي، سادلا ستائري بعيدا عن نعيق الغربان ... ألا ترين كيف وقفت على قدميّ ....؟ أنا تلك النار الوحيدة التي تستطيع أن تعيش تحت المطر.

# النبي المغترب

حلقت الطائرة عاليا نحو المهاجر البعيدة ، تتمطى في فضاء الحرية والشوق، للهناء والسلام والحلم بالاستقرار والمال. إلى النرويج بلد الوندال والصقالبة الأبرار. بلد الثلوج التي تتحول في فصل الربيع إلى عملة الكرو نة التي تتدفتح كالزهور وتدر دولارات وباوندات على جنبات

الطرق الوعرة والسهلة ... كرو نات تغطي جبال (برجن) الشاهقة العلو، كما تغطي أشجار غرب النرويج، وتطفو على مياه نهر أكرس .

يكفي أن المسافرين حين سمعوا تجربتي، يوم جئت أول يوم إلى أوسلو. أخبرني أحدهم من أصحاب الشعر الأسود أن القافلات مجانا للأجانب الجدد في البلد لمدة خمس سنوات. صدقته و لم لا؟ فالنرويج من أغنى دول العالم. كنت أركب القافلة بكل سعادة. آخذ مكاني، غالبا في المقعد الأمامي قريبا من السائق كي يتسنى لي رؤية السيارات الجميلة والفخمة، عكس تلك التي تركتها في بلدي، كما أن جلوسي في المقعد الأمامي قريبا من السائق الذي أتأمل لون شعره إن كان أسودا، سأنهال عليه بأسئلتي اللامتناهية، خصوصا أنني عاطل عن العمل وليس لي إلا تلك « الأجرة» التي أتلقاها من الضمان الإجتماعي. وبطبيعة الحال، لون شعر السائق هو الذي يحدد إن كان ذلك السائق ثرثارا مثلي أو أبكما مثل أغلب السائقين ذوي الشعر الأشقر.

الله ....! ما أجملها تلك الأيام ... أيامي الأولى في النرويج. سنة بأكملها ركبت الحافلة ظانا أنها مجانية. إلى أن كان ذلك اليوم المنحوس، حين طلع خمسة من رجال التفتيش وسألوني عن تذكرة الحافلة. فقلت لهم بكل ثقة:

الحافلة مجانا للأجانب الجدد لمدة خمس سنوات ... كيف تسألوني عن التذكرة؟

انفجر أحدهم ضاحكا ثم أردف قائلا:

هل تسخر مني أم من نفسك؟ عليك تسديد غرامة مالية الآن !

أية غرامة؟ لن أدفع شيئا، سنة بأكملها وأنا أركب الحافلة مجانا، ولا مرة واحدة دفعت ثمن تذكرة.!! أهذه مزحة منك أم أردت أن تجني نقودا مني ظلما؟

هذه المرة سماح. لكن ركوب الحافلة ليست مجانا. ومن أخبرك ذلك فهومخادع .

عندما أخبرت عشيرتي بالأمر، زاد شوقهم للسفر إلى هذا البلد الإسكندنافي. كان الركاب في الطائرة يعيشون أحلاما في النهار طيلة الرحلة. هناك من كان يحلم بجمع ما يستطيع حمله من النقود في كيس كبير، ويرجع إلى الوطن ثم يفتح مزرعة للدجاج. مسافر آخر يحلم بملء صندوق حديدي من الكرونات، ليرجع إلى الوطن ويتزوج ابنة زعيم العشيرة الحسناء. آخر يحلم بالمكوث في النرويج إلى الأبد يتعلم لغة البلد و يمحو من ذاكرته لغته الأم. آخر يحلم بالزواج من نرويجية شقراء، ويتخيل كيف سيكون لون أولاده منها. بعض المسافرين تذرف عيونهم دموعا حرة، وبكاء مخلوطا بالحزن والأنين المشحون بالهم لوطن، ينزف يوميا كلمة الحق على قارعة الطريق، متناثرة أشلاء بعد مراسيم الذبح أو السلخ في وطن مقتول. مهاجرون حملوا على عجل، ودون روية حقائب هجرتهم في صمت، متسللين كلصوص صغارمن قبضة الوطن «اللص» الكبير .ليستقرون بعيدين عن الأهل والأحباب حيث قساوة المنفى وألم الحنين، والشوق الأبدي الذي ينخر الجسد حتى يجعله بدون روح.

دعاني الربان إلى حجرة القيادة ، فرحت لدعوته، حيث كان أول مرة أقف بجانب ربان طائرة وهو يقودها. كنت مأخوذا بمنظر السماء البعيدة، مبهورا لفضاء ذلك الكون الهائل، الذي يزرع في النفس وجلا ورهبة. أتطلع للضباب على شكل قطع كبيرة من الصوف الأبيض، وتحتنا مياه زرقاء. أخذتني نشوة قدسية في تأمل خالق الكون. فمي مفتوح كسمكة في الماء، وعيناي جاحظتان، أنظر إلى السماء حينا وإلى البحر أحيانا أخرى . أما الضباب فكنت أتخيل نفسي أمشي فوقه وأسبح في بخاره المستحيل، في ذلك الكون البعيد، أتمايل بين حريق الماضي ودخان المستقبل، وأتيه في أخاديد الفضاء وابتهالي مسكون بصمت زحمة الأسرار. فجأة يقطع ربان الطائرة تأملي سائلا:

أنت تعيش في النرويج وعندك الجنسية النرويجية، أخبرني عن الحياة هناك؟

استرسلت أحدثه عن جمال نساء البلد، وعن عيونهن الزرقاء كلون اليم. عن الجبال المشجّرة، والزهور المخملية، عن الخيال والأحلام، وعن نظافة البلد وقوانينه، عن هدوء سكانه، عن سلوكهم وعدم تشاجرهم في الشوارع كما نفعل نحن أصحاب الشعر الأسود ...

نظرت إلى الربان، وجدته وقد استرخى كليا على كرسيه وعقد يديه خلف رأسه، وقد جحظت عيناه تحدقان في سقف الطائرة. توقفت عن الثرثرة وصرخت بصوت مرتفع:

ماذا تفعل ...؟ نحن عاليا في الفضاء .... أتريد أن تخسف بنا الطائرة في البحر .....؟

ضحك وقال:

لا تخف، الطائرة تبحر وحدها ولا تحتاجني في هذه اللحظة ... أكمل حديثك ودعني أتخيل نفسي في النرويج.

ثم أضاف قائلا :

بالمناسبة، هل يمكنني أن أعمل ربانا للطائرة في النرويج؟

أجبته:

طبعا، يمكنك ذلك، لكن لابد من تعلم اللغة أولا لفهم طبيعة هذا المجتمع.

عجيب أمر شعب بلدي. أسبوع قضيته في الوطن. وفي كل مرة كنت أخرج مع أصدقائي، يستوقفني أحدهم، خصوصا عندما يعرف أنني قادم من النرويج ليسألني عن كيفية الوصول إلى هناك وعن فرص العمل.

النجار يسألني إن كان ممكنا فتح دكان للنجارة في النرويج. والخياط يسألني إن كان سهلا فتح مصنح لخياطة السراويل النسائية التقليدية والعبايات!... والمعلم يسألني عن إمكانية تعليم لغته الأم في النرويج. والجزار يسألني إن كانت توجد عندنا مسالخ للذبح الشرعي، لأنه يفكر في هكذا مشروع هناك. والطبيب الذي ذهبت عنده، فحصني في خمس دقائق ... وجلس يسألني عن النرويج وأحوال النرويج ما يقارب الساعة، وقبل أن أغادر عيادته سألني إن كانت هناك فرص للعمل كطبيب في النرويج.

ضحكت بامتعاض، وقلت في نفسي ... لم يبق إلا رئيس دولتنا أن يستوقفني في الطريق، ويسألني إن كانت هناك فرصة للعمل كرئيس لدولة النرويج!!

تخيلوا أن النجار والخياط والطبيب وربان الطائرة والفقراء والأغنياء والطيبين والمجرمين والفاشلين والناجحين في الحياة، كلهم يريدون ممارسة مهنهم أو بطالتهم في النرويج. لن يبق أحد في وطني. من سيسكن بعدها وطني ومن سيحكمه؟ كلهم يريدون مغادرة البلد. سيصبح مهجورا... سينقرض وطني.

وكيف سأسافر أنا إلى وطني المهجور من شعبي ورئيسي؟ لن أشعر بالحنين بعد إليهم. لأنهم كلهم من رئيسهم إلى لصهم، سوف يصبحون هنا في البلد. وكيف سأكتب قصصي القصيرة عن الحنين للوطن؟ لأن وطني قد هاجر كله ليحل في والنرويج. هذه مشكلة عويصة، لابد من إيجاد حل لها.

تركت الربان قلقا، وجلست في مكاني أنظر من النافدة، فإذا بي ألاحظ أننا أوشكنا الدخول إلى سماء النرويج. فكان لا بد من إيجاد حل لهذه المشكلة، لا بد من تفكير أو وحي ينزل عليّ من أحد ملائكة السماء، كما كانت تنزل على الأنبياء حتى يستطيعوا تغيير ما لا يستطيع تغييره انسان عادي .

كان يتحسس أفكاره الشاردة، يتوسل إليها أن تتجلى بصمت غاضب، مستاء داخل أعماقه، ليعثر على معجزة تنقذ الوضع. يلملم عصبيته في رحابة تلك السماء، يسعى في فراغ رأسه، يحدق في ظلام معشش في مخيخه، يحدق بنظرات مبتورة إلى المسافرين، الذين كانت أعينهم ستنزلق من محاجرها، لتخرج من نوافذ الطائرة قبل أن تحط في المطار .

عليّ أن أستغل الفرصة مادمت عاليا في السماء ، قريبا من ملائكتها، لابد من أحد الملائكة أن ينزل عليّ بالوحي، ولم لا؟ فأنا قريب منهم ولا يحتاجون لسفرة طويلة للنزول إليّ في الأرض .

يعضّ على شفتيه حينا ويحك صلعة رأسه حينا آخر. أينك يا ملائكة السماء ؟ أرحميني بسرعة لأرحم من في الطائرة. ستنزل الطائرة قريبا، وسينتشرون في مراكز اللجوء، وسيرمون بمفتاح اللغة النرويجية في نهر أكرس. ستطلع روائح توابل طعامهم من بصل وثوم في ثيابهم و غرفهم. سيفرشون تقاليدهم وثقافاتهم في خطواتهم، سيندمجون في تعصبهم، ويشكلون مجتمعا خاصا بهم، وستنهال عليهم انتقادات كثيرة، وستتولد لديهم النقمة والنفور والضجرمن البلد، ويتوجهون إلى خالد سليمي يشكون العنصرية، ويشكلون الجمعيات لحماية ثقافتهم. سيستغلون الحرية لممارسة عباداتهم وعبوديتهم. ويتمسكون نكاية بانتمائهم . يا إلهي ... يا ملائكة السماء مازلت أنتظر حلا

سيكرهون الشعب والوطن الجديد، ورغم ذلك سيمكثون في الأرض ويمشون مرحا ... وحين يرجعون للوطن الأم ... سوف يشتمون ويلعنون، ويحمدون الله على رجوعهم .. لكن سرعان ما يجدون أنفسهم وقد أصبحوا غرباء عنه وقد أصبح في أعينهم ، ظلاما وجهلا وتخلفا وفوضى .

أصابته حمى و بدأ العرق يخرج من صلعة رأسه، إنها مصيبة شعب بأكمله، ينظر من النافذة ، يبحث بعينيه الجاحظتين عن الملاك، يرى الحلول تتساقط من السماء، يقفز صارخا:

سقطت ... وأخيرا سقطت ... ثم يغمى عليه.

تقفز المرأة السمينة التي كانت تغط في سبات مصاحب بالشخير ... ماذا سقط ...؟

نزلت الطائرة بمطار غاردمون، انتشر المسافرون في أرض النرويج، أما هو، فنقلته سيارة الأسعاف إلى المستشفى، مكث في غيبوبة طويلة، وحين رجع إلى الحياة وجد نفسه يدوّن ما رآه في غيبوبته. في كتاب بعنوان، «قبل وبعد». حيث رأى النرويج انقسمت إلى ثلاث قبائل رئيسية: جرونلاند، توبين وهلمليا. وتكاثر أصحاب الشعر الأسود بسرعة هائلة كالفطر، كما تعددت الألوان والأعراق والأديان والمذاهب. وقدم كل من تبقى من شعب بلده مع رئيسهم، وسافر ذوو الشعر الاشقر إلى تلك الأرض النائية والمهجورة. أقاموا فيها، تاركين بلد الوندال ليشيدوا دولة جديدة تحمل قيمهم وحرص الملك على شعبه وحب الشعب لملكه. أرض أصبحت بعد الجفاف روضة، وانتشر خبرها في كل بقاع العالم، كما سمع عنها أصحاب الشعر الأسود ورئيسهم في بلاد الوندال، التي عمّ فيها القمع والظلم والفساد والرشوة والفقر، فصاروا يغادرون الوطن متأففين متجهين إلى وطنهم القديم الذين هجروه سابقا، طالبين حق العودة من اصحاب الشعر الأشقر .

فجأة يضرب بالقلم على الأرض، يمسكه مرة ثانية يعضه بأسنانه حتى لم يبق إلا نصفه، ترتجف أنامله، تستيقظ أفكاره يرفع رأسه إلي سقف شقته ، يتطلع إلي عنكبوت كان في إحدى زوايا السقف، يتحدث إليه كما يتحدث لإنسان.

هل يعيد التاريخ نفسه؟ أم أن التخلف هو الذي يعيد نفسه؟ هل نهرب من أرضنا أم نهرب من حكامنا؟ هل العيب في سياساتنا وقياداتنا أو العيب فينا؟

يصرخ في العنكبوت الذي كان ملتصقا بالسقف هادئا...

لم لا تتكلم؟ إنني أحدثك عن وطن،« نحمله في حقيبتنا» فينمو هما وإعصارا وسما... عن وطن ينعي جيلا بأكمله، كما الماضي والحاضر. ويبقى المظهر مختلفا، كغابة تلتفّ على نفسها.

يقهقه ساخرا وهو ينظر إلى العنكبوت ويقول:

هل تعرف ماذا حصل بعد ذلك؟

يتحرك العنكبوت من مكانه، ويستمر هو في الحديث ويضحك . لقد أعاد أصحاب الشعر الأشقر الوطن لأصحاب الشعر الأسود، واتجهوا نحو المطار للرجوع إلى وطنهم الوندال، فلاقوا جمهورا غفيرا من أصحاب الشعر الأسود، يحاصرون المطار ويمنعونهم من مغادرة البلاد!!!

# أمل

جلست أمل فوق صخرة علي شاطىء البحر تتأمل غروب الشمس في النرويج، يجرها الفراق بعيدا عن منافي القلب ...فراق الوطن والغربة معا تلاشيا عند انقضاء الليل تحت جذوة وطن متجمد يعكس غموض ابتسامته، في أمل زرعته من أجله تحت الثلج لينمو عطرا وياسمينا.عشق الوطن حطم آمالها ولطخ فستانها الأبيض بقلق ينهمر من عيون ملوعة، ولهيب التمني يحرق المسافات ما بين وطن الطفولة وغربة الشباب.

حسرة عاشقة تنتظر الشموع لتتشكل من ضوء الحيرة والظنون. تسير كلماتها في صمت وهي تفتش عن حجر الزمرد في وجه ذلك الوطن الغائب الحاضر خلف السماوات. لقد أكل المنفي كل شيء، ورغم ذلك مازالت تترقبه من وراء تلك المياه الزرقاء ... صانعة من آمالها قاربا ورقيا يطفو على تلك المياه العميقة باحثة عن ذلك الكنز الذي بددته نار تلك الأشياء. لعنة تسلقت في الروح ولا نهاية للسعتها القاتلة ... شوكة تصاحب الألم ... عالقة تأبى الزوال.

عيناها مسافرتان مع الشمس في إغفاءة حزن وإشراقة أمل، ويحين الأفول بانقضاء يوم آخر من عمر أمل، حاملا في طياته ذكريات أليمة حزينة. تلك اللحظة من الغروب، ذكرتها بفراق وطن عزيز رحل وترك القلب منكسرا كما الأمواج تتكسر على الصخرة التي كانت تجلس عليها.

أهي شوكة على شكل وردة صارت مدببّة ... تخز الأرواح ... وترجف القلوب؟ أم هو وجه بوجهين يحمل كل أنواع الجبن ورائحة الحروق حيثما حلت. مفقودة رغم الوجود ... مبتورة عن الحياة ... تتعكز الحزن وتدوس على الفرح، تفترش الأزمات وتتدثر بعباءة النميمة، صانعة من قصائد هجائها وذمها ومدحها واقعة خرافية عن الغيب والغائبين.

ضاعت كلمة الحق في كل مكان، وافترشت الأرض كذبا ورياء. تهدمت البيوت الكبيرة، وحلت محلها أكواخ عارية السقف من غير أساس واقفة تحتاج لركائز أو ركيزة على الأقل حتى لا تقع ...

أكواخ لا تستقر على حال. عواصف تهددها ... وأمطار تبلل داخلها ... ورياح تبعثرها على كل الجهات، فتطير جدرانها الهزيلة لاهثة لا تدري على أي مكان تستقر. حسراتها تضيع في المساءات الباردة بين وحدتها، تصارع الطوفان المخيف تترقب مغيثا من نافذتها الصغيرة كي يزيل عنها غبار العتمة.

آه ..! عن كلمة الحق ... عن صداها الذي يدوي في الأوراق والحجر وفي أعماق الجدار المنهار. هنا أجلس على هذه الصخرة ولا أعرف إن كنت أنعيك. أراقبك من وراء هذه المياه وأعلم أنك تراني.

رفعت أمل عينيها إلى السماء، فرأت غيوما متفرقة في تلك الزرقة والشمس حارقة تجلب الأوهام والدهشة التي تغتال ذلك الغروب. تمسح عن جسدها عرق المنفى، إلا أن روحها مستلقية على تل بعيد حيث الأزهار المورقة تكبر بين الصخور وتحت السماء وحيث الرياح والثلوج تغطي الجبال في الفجر لتعود إلى الوطن. نعم، ألست الأمل ...؟ لن أرضخ للسعة شوكة ولا للدغة سامة... سأعيش على أمل...

أتذكر يا وطني روضة الورود وشمس الأيام ...؟ أتذكر السواحل والبحر والطيور والشجر ...؟ كناّ شعبا طيبا يسكن في أزهارك رغم أنه يكابد في الحياة بلا صوت، خوفا من المجهول الذي يعرف أنه قادم ولكن لا يدري متى... أتدري يا وطني كم أنني رقيقة إلى درجة العدم؟ أوجاعي تتسرب الآن من جسدي المنهك في زحمة حروبك ولهيب جحيمك. أجهضتني جبالك وأشعلتني رمالك بأنين مبحوح. رياحك تبعثرني ومازالت. أتذكر طفولتي حين كنت أحلق كاليمامة في فضائك،

أنظر مبهورة في صفائك وفي نبع طيفك الذي يحاكي وجه القمر. هل نسيتني ...؟ أنا أمل ... أنا ذلك النور الذي يزرع في الروح حب الإبتسامة والإطمئنان ... لكن مياهك الآن عميقة لا ترى .. لقد كبرت يا وطني وفهمت سر جدولك الساكن ...

لا أعرف إن كنت أحبك أو أكرهك.!! دموعي تسيل من نفس تتلوى حنينا أكثر مما تشكو ألم الغياب.

أمل لسعته شوكة وردة غير كل الورود، وتوارى بعيدا مغلقا كل الأبواب، يتعثر في ظله المنكسر ويرتشف وحدة آلامه. أحلامه التي توارت وراء كواكب بعيدة، يبحث عن أمل لنفسه وكيف لأمل أن يبحث عن أمل ...؟ مازالت تؤلمه تلك الحكاية ...حكاية أمل وغربة وطن.

كان الثلاثة معا يعبرون طريق الحياة على قارب ورقي صغير، سعداء ...يغيبون في حديثهم عبر مروج ذلك الصيف، عن الحب والجمال وعن السلام والصفاء والحروب والخراب. عن كل شيء ...وتأتي أمل كما لو أنها خلقت في حلم، وجهها متورد بنشوة الشباب، هيفاء خطواتها قصيرة متتابعة، ابتسامتها عذبة تلون الأرض، تتوهج من شموع الأزمنة الغابرة، صامتة دون لغة في «غربة» ألقتها من ذلك القارب الورقي الصغير إلى أحضان المياه العميقة والوطن قبالتها في ابتهاج ينظر ويبتسم. أما أمل فلم تبلعها المياه ولكنها كانت تسبح وتبتعد كسمكة هاربة تاركة الوطن والغربة خلفها، لم ترهما مرة أخرى ...اختفيا منذ اللحظة التي شاركا في قذفها وراء البحار.

# فهرس الموضوعات